مباحث في لغة القرآن الكريم وبلاغته

تأليف

أ.د.عائد كريم علوان الحريزي

العراق ٢٠٠٨

مباحث في لغة القرآن الكريم وبلاغته

تأليف

أ.د.عائد كريم علوان الحريزي

العراق / ٢٠٠٨ م

الإهداء

إلى . . . زوجتي العزيزة (ثورة)

إلى . . . أولادي الطبيب (زيد)، والطبيب (غسان)،

والطبيب (علي)، والطبيب (محمد)، وحمزة

أهدي كتابي هذا؛ دليل رضا، وذكرى، ومودة

أ.د. عائد كريم علوان الحريزي

المباحث

المبحث الأول: نشأة اللغة، في ضوء قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾

المبحث الثاني: قراءة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

المبحث الثالث: التقديم في القرآن الكريم

المبحث الرابع: دلالة العلامة الإعرابية في القرآن الكريم

المبحث الخامس: مخالفة العدد للمعدود في ضوء الزوجية في القرآن الكريم

المبحث السادس: "ثم" في القرآن الكريم

المبحث السابع: "على" في القرآن الكريم

المبحث الثامن: "في" في القرآن الكريم

المبحث التاسع: البناء للمجهزل في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله، ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه مباحث في القرآن الكريم، في نحوه، وبلاغته، ودلالة ألفاظه، بعضها نشر، وبعضها لم ينشر آثرت أن أجمعها في كتاب خاص لعلها تضيء شمعة في درب الباحثين لمدارسة كتاب الله والاطلاع على أسراره، وستكون -بإذنه تعالى- بداية لمباحث أخرى تغترف من نبعه وتنهل من موارده.

استعرض المبحث الأول قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ نظريات نشأة اللغة بإيجاز شديد، وبيان مواضع القوة والضعف فيها، وتبين أنها كلها تتعاضد وتكوّن نظرية واحدة متكاملة، لا نظريات متعددة أو متقاطعة ولكن اللغويين لم يلتفتوا إلى هذا، والتزم كل فريق منهم جانباً من جوانبها وتعصب له، ولم ينظروا إلى القضية نظرةً فاحصة شاملة.

وثبت بالأدلة أن النظرية الصوتية في نشأة اللغة يمكن أن تفسر الكثير من الظواهر اللغوية، وأن اللغة العربية من أقدم اللغات إن لم تكن أقدمها، وأن اللغة في أصلها ثنائية، وأن الاسم أصل الاشتقاق، وأن الترادف اللغوي سببه الأصوات التي تخرجها

الأشياء في الفعل الواحد، أو العمل الواحد، وإلى آخره من النتائج التي أشار إليها البحث.

وأكد مبحث "قراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)" أن كتب التفاسير تشير إلى أنه عليه الصلاة والسلام في بعض المواضع يفضل قراءة على أخرى مع أن القراءات كلها مرجعها إليه، وقد تتبعت ذلك، وقسمته على أربعة أقسام مقرونة بأسبابها وفروعها، وهي: المعنى، والتوكيد، والحذف، وتوحيد الأصوات.

وتضمن مبحث "التقديم في القرآن الكريم" مقدمة معززة بشواهدها القرآنية، وقُسمَ التقديمُ فيه على عشرة أضرب مشفوعة بأسبابها هي:

رعاية الفاصلة، وتقديم السبب على المسبب، والتنبيه على خصوصية معينة، وتقديم ماهو أجدر في إحداث الفعل، وتعجيل المسرة مراعاة للحالة النفسية، وتقديم إرادة الله على إرادة الآخرين، والتوضيح بعد الإجمال، وتقديم من أجل الحصر والاختصاص، وتقديم من أجل التدرج مع ذكر أنواع التدرج في الأسلوب القرآني:-

وأشار مبحث "دلالة العلامة الإعرابية في القرآن الكريم" إلى عدة دلالات هي:-

أ- تعيين وظيفة الكلمة في الجملة.

ب- الدلالة الزمنية.

جـ- الدلالة على الثبوت والتجدد.

د- الدلالة على مذهب فقهي.

هـ- الدلالة على الحالة النفسية.

و- الدلالة على النفي أو الإثبات.

ز- الدلالة على حكم شرعي.

ح- لفت النظر إلى أهمية شأن أو قلته.

وفي مبحث "مخالفة العدد للمعدود في ضوء الزوجية في القرآن الكريم" عرضت آراء النحاة في المخالفة، وعُلّلَ مجيء المعدود المذكر بعد العدد المؤنث، وبالعكس بحاجة أحدهما للآخر، وتفاؤلاً بحدوثه مستقبلاً قياساً على آيات الزوجية في الذكر الحكيم.

وظهر في مبحث "ثُمّ في القرآن الكريم" أنها قسمان:-

أ- زمانية.

ب-غير زمانية تدل على تفاوت في المراتب وأنها تساوي "سين" الاستقبال ولا تأتي زائدة، ودخولها في جواب الشرط يفيد تمديد زمنه، ولا يحتاج إلى تقدير آخر، وهي في جميع استعمالاتها تفيد العطف، والترتيب، إضافةً إلى معانيها البلاغية الأخرى، وأنها و"ثَمّ" بالفتح تشتركان في "البعد" ثَمّ بالفتح في البعد المكاني، وثُمّ بالضم ببُعد المراتب، وبالبعد الزماني، لذلك جاءت في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ

لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى﴾[1] ليكون ذلك الأذى مكروهاً، ومنهياً عنه مهما طال الزمن.

ومبحث "على في القرآن الكريم" سار على هدي البصريين في كون حروف الجر لها معنى واحد لا يتعداه إلى غيره كما قال الكوفيون الذين ذهبوا إلى تعاقب بعضها مع بعض، واتضح أن "على" تأتي لما يكون فيه مشقة مستثقلة، أو إكراه، أو لإظهار العزيمة نحو "أنا على الحج" أو للثبات على الأمر نحو "أنا على ما عهدتني"، أو لإظهار الإلزام كقوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[2] وبين مبحث "في في القرآن الكريم" أن هذا الحرف يبقى على معنى واحد هو "الظرفية" وله دلالة معنوية، وعلمية، وبلاغية في تأخيره كقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[3] أو تقديمه نحو ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾[4] وفي استعمالاته الأخرى نحو ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[5].

عسى أن أكون قد وفقت في خدمة كتاب الله، وأبناء العربية والإسلام وأنال أجر المجتهد المصيب، وأن يكون هذا الكتاب،

---

[1] من الآية ٢٦٢ من سورة البقرة.

[2] من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة.

[3] من الآية ٢ من سورة البقرة.

[4] من الآية ٤٧ من سورة الصافات.

[5] من الآية ٧٢ من سورة طه.

وكتاب "آية وقصة" شفيعين عند ربي ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾[1].

الباحث

---

[1] الآيات ٣٤، ٣٥، ٣٦ من سورة عبس.

المبحث الأول
نشأة اللغة في ضوء
قوله تعالى
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾

اللغة: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[1] ومنذ أيام أفلاطون (٤٢٨ق.م-٣٤٨ق.م) وأرسطو (٣٨٤ق.م-٣٢٢ق.م) والعلماء مختلفون في نشأتها فمن قائل إنها توقيفية من الله تعالى، ومن قائل إنها اصطلاحية عرفية حاصلة من اتفاق البشر فيما بينهم ومن قائل غير ذلك.

وقد يزعم بعض الباحثين أن الحديث في هذا المضمار ضرب من الخيال غير المجدي وأن الدهر قد أكل عليه وشرب كما يقولون، غير أن القراءة في المعجم العربي لاتؤيد هذا الزعم وتكشف عن جدة فيها حقيقة على جانب كبير من الأهمية في تفسير نشأة اللغة وترى أن تلك النظريات المتعددة هي نظرية واحدة متكاملة لا نظريات مختلفة أو متصارعة أو متقاطعة، وان اللغة العربية هي من أقدم اللغات أو أنها قد تكون أم اللغات وقد ترقى إلى عصور موغلة جداً في القدم، وأن القول بأنها لغة آدم[2] حقيقة أو مقارب من الحقيقة لا تعصب فيه أو مكابرة، وان العربية تضم بين طياتها وثناياها عشرات الألفاظ من لغة آدم، أو لغة أبنائه وأحفاده القريبين منه أولئك هم أناس الغابات والكهوف ثم المراعي والمدن، والحضارة بعد ذلك. ومن أجل الوصول إلى معرفة نشأة اللغة سنعرض بإيجاز تلك النظريات التي هي موجزة

---

[1] الخصائص، ابن جني، ٣٣/١، تحقيق النجار، القاهرة، ١٣٧١هـ.

[2] المزهر، السيوطي، ٣٠/١، دار إحياء الكتب العربية.

أصلاً مؤيدين مانراه منها ومشيرين إلى أصل اللغة وطبيعتها مستندين في ذلك إلى أدلة علمية ملموسة.

أ- فالنظرية التوقيفية ذهب إليها الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين وقسم من علماء اللغة كأحمد بن فارس[1] وأبي علي الفارسي ورأوا أنها من الله سبحانه علمها الإنسان بخلق الأصوات في بعض الأجسام أو بعلم ضروري خلقه في بعضهم حصلت به إفادة اللفظ للمعنى أو بإيحائها إلى كل الأنبياء أو بعضهم أو بإلهام آدم قسماً منها كأن وقفه - تعالى- على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه... ثم علم بعده الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً، نبياً، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فأتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحداً من قبله تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت[2] واحتج أصحاب التوقيف لمذهبهم بأدلة نقلية وعقلية، منها قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[3] وقوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ فهاتان الآيتان تنصان على أن اللغة منه فالأولى تدل على اختلاف اللغات- وهو المشار إليه بالألسنة هنا- من عنده لأن الألسنة اللحمية

---

[1] الصاحبي، ابن فارس، ص٣١، بيروت، ١٣٨٣-١٩٦٤م.

[2] جامع البيان، الطبري، ٤٨٢/١، دار المعارف، والمزهر ٩/١.

[3] من الآية ٢٢ من سورة الروم.

غير مرادة لعدم اختلافها، ولأن بدائع الصنع في غيرها أكثر، وأما الثانية فتنص على الأسماء وتشتمل على "الأفعال والحروف" باعتبارين: الأول: هو أن "الأفعال والحروف" أسماء أيضاً لكونها كالأسماء علامة لما وضعت عليه، ولأن التقسيم على "أسماء، وأفعال، وحروف" من تصرف النحاة لا من اللغة. والاعتبار الثاني: هو اعتبار العلاقة المجازية الجزئية أي من قبيل ذكر الجزء وإرادة الكل وقد خص هذا الجزء دون غيره لأنه أقوى الضروب الثلاثة ولابد لكل كلام مفيد من الاسم وقد تستغنى الجملة المستقلة عن كل واحد من الفعل والحرف مثل "محمد مجتهد" فلما كانت الأسماء من القوة والأولية في النفس والرتبة على ما لا خفاء به جاز أن يكتفى بها عما هو تالٍ لها ومحمول في الحاجة إليه عليها[1].

ومنها أن الاصطلاح على أول اللغات محال لاحتياج المصطلحين الواضعين لاصطلاح آخر، أو لعبارة أخرى يفهمون به أو بها الاصطلاح الأول، وهذا يلزم الدور والتسلسل في الأوضاع، ولابد -إذن- من الانتهاء إلى التوقيف والقول به[2] ومنها احتمال خلق الله تعالى الألفاظ ووضعها بإزاء المعاني وخلق علوم ضرورية في أناس بأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك

---

[1] الخصائص، ١/٤٢.

[2] المزهر، ١/١٨.

المعاني[1] ومنها إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ثم احتجاجهم بأشعارهم دليل على التوقيف، لأن اللغة لو كانت مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم أولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم[2] ولكن هذه النظرية لم تسلم من النقد والتجريح، ورد عليها بجواز أن اللغة وضعها قوم قبل آدم وعلمها الله آدم، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ وأن مجازية الجزئية في قوله ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعارضه مجاز آخر، وعليه يحتمل أن يكون المقصود بـ(اختلاف ألسنتكم) مخارج الحروف، وليس اختلاف اللغات[3] وأن الاصطلاح لا يستدعي اصطلاحاً آخر بدليل تعليم الوالدين الطفل دون سابق اصطلاح[4] وأن المواضعة لابد من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه والمشار نحوه، والله سبحانه لايجوز أن يواضع أحداً على شيء[5] وإذا كانت اللغة توقيفية فمعناه أن الله يبلغها للبشر عن طريق نبي وهذا يتطلب أن يكون النبي قبل اللغة، وذلك يناقضه الواقع الذي يكون وجود النبي فيه بعد وجود اللغة لأنه يأتي بلسان قومه[6].

---

[1] السابق، ١/١٧.

[2] المزهر، ١/٩.

[3] السابق، ١/١٩.

[4] السابق، ١/١٣/١٩.

[5] الخصائص، ١/٤٥.

[6] المزهر، ١/١٨.

ب-أما النظرية الاصطلاحية فرأى أصحابها أن اللغة لا تكون وحياً وذهبوا إلى أن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة والاصطلاح وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين... فكأنهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه، وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق... وهلم جراً فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف واحتجوا بإمكانية تولي واحد أو جمع وضع الألفاظ لمعان ثم يفهمونها لغيرهم بالإشارة، وبأن القول بتوقيف اللغة يقتضي تقدم واسطة البعثة على التوقيف، والتقدم باطل وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلابد من واسطة بين الله والبشر وهو النبي لآستحالة خطاب الله تعالى مع كل أحد، وبيان بطلان التقدم قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[1] وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة، وقالوا إذا كانت اللغة توقيفية فأما أن يخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا، أو في غير العاقل... والأول باطل وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة لأنه إذا كان عالماً بالضرورة يكون الله وضع كذا لكذا كان علمه بالله ضرورياً ولو كان

---

[1] من الآية ٤ من سورة إبراهيم.

كذلك لبطل التكليف، والثاني باطل لأن غير العاقل لا يمكن إنهاء تمام هذه الألفاظ إليه[1].

وقد رد على هذه النظرية بجواز خلق الله العلم الضروري في العقلاء لمعرفة اللغة، وبأن التوقيف لايتوقف على البعثة لجواز أن يخلق الله في الناس العلم الضروري بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا[2].

جـ-النظرية التوفيقية، وسميت هذه النظرية بهذا الاسم لأن أصحابها يجمعون بين "التوقيف والاصطلاح" أي يوفقون بين مذهبين فيأخذون شيئاً من هذه النظرية وآخر من تلك ويرون أن اللغة في نشأتها الأولى لابد فيها من التوقيف وماعدا ذلك يجوز بكل واحد من الطريقين[3].

د- النظرية الصوتية ويرى أصحابها "أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونحو ذلك... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد[4].

تلك هي النظريات التي وردت في كتب الأقدمين عن نشأة اللغة وأما المحدثون فقد بحثوا في نشأتها أيضاً، وجاءت آراؤهم

---

(1) المزهر، ١/١٨.

(2) المصدر السابق، ١/١٩.

(3) المصدر السابق، ١/٢٧.

(4) الخصائص، ١/٤٦-٤٧، وينظر في ذلك "نظريات نشأة اللغة عند العرب" د.محمد حسين آل ياسين، المورد، العدد الثالث، ١٩٧٨.

متطابقة أو متقاربة مع النظريات السابقة ويحتمل أنهم قد اطلعوا على نظريات القدامى ولم يشيروا إلى ذلك أو أن البحث قد قادهم إلى النتائج التي توصل إليها سابقوهم دون الاطلاع على كتاباتهم وسيظهر هذا جلياً عند عرضنا لنظرياتهم وهي:-

١-نظرية (BOW-WOW) ويرجح أصحاب هذه النظرية أن النشأة الأولى للألفاظ لا تعدو أن تكون تقليداً للأصوات الطبيعية التي سمعها الإنسان الأول واتخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات فنباح الكلب -مثلاً- اتخذ رمزاً[١] يعبر أو يدل على الحيوان نفسه، وهكذا يتصور أصحاب هذا الرأي أن الإنسان الأول سمع عواء الذئب، وزئير الأسد، ومواء الهر، فاتخذ من تلك الأصوات الحيوانية المتباينة أعلاماً للحيوانات أنفسها، كما سمع حفيف الشجر، وزفير النار وقصف الرعد، وخرير الماء، وغيرها فاتخذ منها أسماء لكل الظواهر الطبيعية التي تسمع لها أصوات وبهذا تكونت له مجموعة كبيرة من الكلمات تعد في رأي أصحاب هذه النظرية من أقدم الكلمات في اللغة الإنسانية ثم يتصورون أن الكلمة في تطورها لا تقف في دلالتها عند حدود مصدرها الأصلي بل قد تتعداه إلى أمر لا صلة له بذلك المصدر وإلى معنى جديد لا يمت إلى الدلالة الأصلية بصلة وثيقة، لذلك يجب ألا نعجب -كما قال إبراهيم أنيس-

---

[١] دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص٢٠-٢١، ط٣، القاهرة، ١٩٧٢.

إذا اشتق من "الفحيح" صوت الأفعى الفعل "فحفح" بمعنى صحح المودة وأخلصها[1].

٢-نظرية (POOH-POOH) يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية بدأت في صورة شهقات وتأوهات صدرت عن الإنسان بشكل غريزي لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية[2] فالشعور بالغضب -مثلاً- يصحبه عادة ميل إلى النفخ بالفم أو من الأنف ومن هنا ينشأ صوت مثل "POOH" في الإنجليزية أو "أف" في العربية وكذلك الحال حين يدهش المرء أو يفزع يميل عادةً إلى الاستدارة في الشفتين قليلاً ومثل هذا الوضع لهما يولد لنا صوت اللين المسمى بـ"الضمة" وهي حين تطول قد يتصل بها صوت يشبه الهاء، ويترتب على هذا أن تنشأ تأوهات مثل (OH) وهو الصوت الذي نسمعه عادةً في جمهور المشاهدين حين يفاجأون بمنظر بالغ الدهشة أما في حالة الألم فتتقلص أعضاء الجسم كلها بما في ذلك الوجه مما يترتب عليه أن الشفتين تأخذان الوضع المناسب لصوت اللين "الفتحة" ويؤدي هذا إلى صوت مثل "آه"[3].

---

[1] دلالة الألفاظ، ص٢١.

[2] السابق، ص٢٣.

[3] السابق، ص٢٤.

٣-نظرية (DING-DONG) يرى أصحاب هذه النظرية أن هناك صلة وثيقة بين ماينطق به المرء من أصوات وبين مايدور في خلده من أفكار، ويرون أن كل أثر خارجي يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات وهذه قوة أو قدرة قد اختص بها الإنسان منذ الخليقة ثم يعترفون أن سر هذه القوة مازال غامضاً علينا، كأنما هو سحري لاندري له كنهاً، أي أنهم يتصورون أن المرء يرى الأشياء أو الحوادث فيتأثر بها، ويتبع هذا التأثر بصورة آلية حتمية أن ينطق بالأصوات أي أن الألفاظ لا تعدو أن تكون صدى لتلك المؤثرات الخارجية غير أن معرفة كنه الصلة بينها أمر عسير على أذهاننا وقد بنوا هذه النظرية على تلك الظاهرة العامة التي نلحظها في الأشياء المحسوسة من أن اصطدام أي جسم أو الدق عليه يولد صوتاً معيناً به يتميز هذا الجسم في غالب الأحيان فللدق على الحديد صوت يخالف مايصدر عن النحاس أو الفضة أو الخشب، وهكذا نرى أن لكل شيء رنيناً خاصاً يتميز به وكذلك الآثار الخارجية التي يتأثر بها الإنسان يحدث كل منها رنيناً خاصاً فيتعدد الرنين بتعدد الآثار الخارجية ولذا تعددت الألفاظ وتعددت الأصوات المشتملة عليها[1] وأهم ما وجه

---

[1] دلالة الألفاظ، ص٢٥.

لهذه النظرية من نقد هو أنها أنشئت على أساس غامض وأحيطت بالألغاز والسحر.

٤-نظرية (YO-HE-HO) يربط أصحاب هذه النظرية بين نشأة اللغة وتكوّن المجتمع الإنساني ويرون أن اللغة نشأت حين اجتمع الإنسان بأخيه الإنسان، ولم تنشأ عنه وهو منعزل منفرد وعندهم أن النطق الإنساني نشأ أولاً في صورة جماعية فقد صدر عن مجموعة من الناس في أثناء قيامهم بعمل شاق مضن تعاونوا على أدائه، ويؤكدون أن الإنسان يجد الراحة في أثناء قيامه بعمل شاق إذا تنفس أو تنهد بقوة وعنف، وكرر هذا عدة مرات، فهو يصدر من رئتيه قدراً من الهواء ويستريح لهذه العملية العضلية، لأنها تخفف من عناء عمله ومشقته، ويترتب على صدور الهواء وانبعاثه إلى خارج الفم أو الأنف أن يمر بالوترين الصوتيين فيحركهما فتسمع لهما ذبذبات ذات أنغام مختلفة ويشبه هذا ما نسمعه أحياناً من بعض العمال الآن حين يؤدون عملاً شاقاً مضنياً إذ نراهم يغنون أو يرددون عبارات بدائية لاتكاد تتضمن معنى معقولاً مفهوماً وهم بهذه العبارات يلتمسون عوناً لأنفسهم في أثناء قيامهم بعملهم الشاق ويجدون فيها متنفساً وتشجيعاً، فيكررونها، ويعيدون تكرارها دون ملل أو سأم[1].

---

[1] دلالة الألفاظ، ص٢٦.

٥-ذهب الأستاذ إبراهيم أنيس تحت عنوان "صورة خيالية لنشأة اللغة" إلى أن معظم الكلمات قد أخذت مدلولاتها بطريقة المصادفة، أي أنها كانت أصواتاً مبهمة لا هدف منها سوى اللعب والمتعة ثم تصادف أن نطق بها في أثناء حدث من الأحداث فارتبطت به ارتباط العلمية، وتدرج العلم من معناه الخاص إلى معنى عام[1].

هذه هي آراء المحدثين من عرب وأجانب في نشأة اللغة، وهي زيادة على ما عرضناه من نظريات القدامى فيها قدر من الصحة وجانب من الحقيقة لها ما يعيبها وما يؤيدها والنسبة متفاوتة في هذا الجانب أو ذاك، وكلها يكشف شيئاً ولو قليلاً من نشأة اللغة ويشعل شمعة للاهتداء إليها ويضيء بصيصاً في دربها الطويل يحاول استشراق الماضي بعيون الحاضر وتجاربه وقوانينه وأصوله، وحصافة رواده ورزانتهم ورغبتهم في الاكتشاف، ومعرفة الأسرار يكبوا أملهم وينهض وهم ماضون في سبيله دون كلل أو ملل، يتأملون ويستوعبون ويحللون، وينظرون ويقعدون، يخطئون مرة ويصيبون أخرى ولهم حسنة المجتهد المخطئ وأجر المصيب.

ونظرية (BOW-WOW) الصوتية صحيحة في جانب وينقصها، آخر كما سنرى، ونظرية (POOH-POOH) تفسر ما

---

[1] السابق، ص٣٥-٣٦.

يصدر عن الإنسان بشكل غرزي في فرحه وحزنه وغضبه كالشهقات والتأوهات والزفرات...

ونظرية (DING-DONG) تربط بين المؤثرات الخارجية وما يستلزمها من صدور أصوات تخرج من الإنسان بصورة آلية عند تأثره بها... ونظرية (YO-HE-HO) تتحدث عما ينتج من نشوء المجتمعات الإنسانية ومستلزماتها وإفرازاتها، ولأن اللغة لاتقوم على أساس المصادفة كما قال إبراهيم أنيس، لأنها قائمة عن وعي وإدراك تشعبت معانيها وصقلت ألفاظها على مر العصور...

هذا هو موجز النظريات الحديثة لكن أعظمها شأناً وأقربها إلى الصدق والواقع هي "النظرية الصوتية"، لأن الشهقات والزفرات والتأوهات التي جاءت بها نظرية (POOH-POOH) معدودة بعدد أطراف الأصابع لا تشكل لغة من اللغات ولأن تلك الأصوات ليست كلاماً ولا تصدر عن المرء إلا حينما يعييه الكلام ويجفوه القول لدهشة أو انفعال ولأن نظرية (DING-DONG) قامت على أساس غامض لايعرف كنهه زيادة على إحاطتها بالألغاز والمعميات والسحر وهي إن صحت في الإشارة إلى اختلاف الأصوات الناتجة بضرب المواد بعضها ببعض فهي لاتصح في الميدان اللغوي.

ولأن نظرية (YO-HE-HO) تقتضي أن الإنسان بقي ساكتاً لايتكلم إلا حين تكون المجتمع، ولأن ما يصدر عن الناس

مجتمعين لأداء عمل معين لا يتعدى "همهمة" أو أصواتاً غير مفهومة ليست بلغة ولا تكون لغة وإنما هي أصوات يرددونها نحو "هه-هه-هه" أو غير ذلك لتقوية العزيمة ونسيان التعب...

أما نظرية إبراهيم أنيس فقد تصح لتفسير لفظة أو لفظتين وحتى عشر، ولكنها لاتصلح لتفسير لغة الملايين وهو غير متأكد منها وسماها "خيالية" وهي خيالية فعلاً إذ إن اللغة لا تقوم على أساس المصادفة... ذلك هو شأن النظريات المتقدمة جزئية لا كلية، أحادية النظرة تلحظ جانباً وتعول عليه وتترك آخر له أهمية واضحة أو أنها ربما تنظر إلى جزء صغير من جانب وتهمل ما عداه ولا تنظر إلى المسألة من جميع جوانبها...

وأرى أن المنطق يحتم على الباحث أن يضع في حسابه قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ وأن للعلماء في تفسيره ثلاثة مذاهب: الأول هو أن الأسماء هنا بمعنى العبارات... كقولك: زيد قائم، والأسد شجاع[1] والثاني: علمه مسميات الأشياء، صفاتها، ونعوتها وخواصها، والثالث: عن أبي عباس هو أن المقصود به "هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس نحو إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل...[2] وأن ذلك يشتمل على الأفعال والحروف أيضاً، لكونهما كالأسماء علامة لما وضعت عليه...

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٨١/١، دار الكتب المصرية، ١٣٥٤هـ-١٩٣٥م.

[2] جامع البيان، ٤٨٢/١، التفسير الكبير، الرازي، ١٧٥/٢، مصر، الكشاف، الزمخشري، ١٢٥/١، الاقتراح، السيوطي، ص٧، دار المعارف، سوريا.

وباعتبار العلاقة المجازية الجزئية التي يطلق فيها الجزء ويراد به الكل... وأن عملية التعليم كانت بخلق الأصوات في بعض الأجسام أو بعلم ضروري خلقه في بعضهم حصل به إفادة اللفظ للمعنى أو بإيحائها إلى كل الأنبياء أو بعضهم أو بإلهام آدم قسماً منها كما مر ذلك في النظرية التوقيفية...

وبعد ذلك ينظر في أمرين يتحقق بهما معنى الآية الكريمة في نشأة اللغة وهما:-

الأمر الأول: الإنسان نفسه فإن الله سبحانه خلق له جهازاً نطقياً متكاملاً يستعمله كما يستعمل أجهزته الأخرى يصدر منه أصواتاً في فرحه وحزنه وغضبه ورضاه وجوعه وشبعه وعطشه وارتوائه أو مغازلته، أو دهمه الحيوان، أو مناغاته لطفله أو لغير ذلك استجابة وتأثراً بالمؤثرات الخارجة عليه أو الداخلة فيه، وهذه الأصوات لا يستطيع أحد حسها أو التكهن بمعرفتها، وليس لها من سبيل لتقادم الزمن السحيق عليها سوى النزر القليل جداً منها الذي بقي هو هو... على مر الأيام والعصور- لم يتبدل أو يتغير كالشهقات والزفرات والتأوهات التي أشارت إليها بعض النظريات ونضيف إليها أدوات التنبيه (ها- يا- أيا- هيا... إلخ) والأصوات الدالة على التعجب والتوجع، والبحة- خشونة الصوت... والخن، والشرب، والصفير، والغن "التكلم من الخيشوم" والنشيج، والنعير، والنعار "الصياح بخشونة" والهوع "القيء من غير تكلف"... والهيعة- الصوت عند الفزع- والأحيح، والأحاح- صوت يخرجه

توجع أو ألم- والنحيط، والهمهمة، والزحير- إخراج النفس بأنين عند عمل أو شدة، والطحير، والبخيخ، والفخيخ صوت النائم، والبخيخ أرفع منه، والغطيط أزيد منه والجخيف أشد منه[1] وغير ذلك من الأصوات التي تخرج من الإنسان بصورة غير إرادية.

الأمر الثاني: هو أن الله سبحانه وتعالى علم البشر اللغة بطريقة غير مباشرة بأن وضع الأصوات في المخلوقات الأخرى تصدر عنها بصورة آلية كما يصدر قسم منها عن الإنسان نفسه مثلما أشرنا إليه في "الأمر الأول" وقد أخذ الإنسان يحاكي هذه الأصوات وجعلها اسماً لمصدرها وعلامة تدل عليه إذا سمعها تراءت له صورة صاحبها وإن ذكرها علم أنه يقصد ذلك الحيوان أو تلك الظاهرة أي أنه يدل بصوت الشيء على الشيء ذاته مثل الأمر مثل الكتابة الصورية التي يدل بالرسم على المعنى المقصود أي يدل على الشيء بصورته، لكن الدلالة الصوتية سبقت الدلالة الصورية، إذ إن الإنسان اهتدى إلى الدلالة الصورية أي الكتابة بالصور بعد زمن طويل من وجوده، أما الدلالة الصوتية فقد اهتدى إليها منذ زمن سحيق، ويحتمل أن الدلالة الإشارية قد سبقتهما أيضاً وأنها أقدم منهما، وتأشير الطفل الصغير -في مرحلة ماقبل النطق- إلى الشيء المراد وتقليده لصوته بعد أن يقوى على النطق قد يكونان دليلين على ذلك يعضدانه ويقويانه ومن هذا نستنتج أن الدلالة عند الإنسان مرت بثلاث مراحل هي:

---

[1] فقه اللغة، الثعالبي، ص٣١٥، القاهرة، ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.

الدلالة الإشارية وهي التي يشير فيها باليد إلى الشيء الذي يريده والدلالة الصوتية وهي التي يحاكي فيها صوت الشيء الذي يريده والدلالة الصورية وهي التي يرسم فيها شكل الشيء وقد بقيت الدلالة الإشارية كما هي وتطورت الدلالة الصوتية إلى اللغات والدلالة الصورية إلى الكتابة بالحروف الهجائية عند الأمم... وعلى هذا فالنظرية التوقيفية والنظرية الاصطلاحية والنظرية الصوتية وغيرها من النظريات هي نظرية واحدة متكاملة لا نظريات متعددة أو متقاطعة ولكن اللغويين لم يلتفتوا إلى هذه والتزم كل فريق منهم جانباً من جوانبها وتعصب له ولم ينظروا إلى القضية نظرة شاملة.

وقد تتبعت في اللغة العربية الألفاظ التي حاكى فيها الإنسان أصوات الطبيعة واستخدمها اسماً لمحدثها وعلامة تدل عليه وأحصيت منها مايربو على (٤٥٠) كلمة وقد يزيد هذا العدد أو ينقص عند من يريد عدها، لأن قسماً منها -لبعد العهد به- مجال تفكير وتدبر يخضع لتخيل الباحث وقوة تصوره، ولكون قسم آخر لايفهمه إلا ابن البيئة التي ولد فيها اللفظ، فالفعل "جخر" -مثلاً- ومعناه: وسع البئر، يدركه الفلاح وابن البادية اللذان رأيا البئر وسمعا الصوت وشاهدا عملية التوسيع التي يشترط فيها وجود ماء قليل لكي تخرج المسحاة صوت "الجخر" وقد يغيب ارتباط صوته بمعناه أو دلالة صوته على معناه على ابن المدينة ممن لم يشهد

الآبار ولم يحضر عملية توسيعها ولم يسمع صوت الجخر من آلة الحفر.

وقد ظهر لي من قراءة تلك الألفاظ ما يأتي:-

١-أنَّ اللغة العربية من أقدم اللغات إن لم تكن أقدمها وقد ترقى إلى أن تكون لغة آدم بلا تحيز أو مكابرة ولنا في إثبات ذلك ثلاثة أدلة:-

الدليل الأول: أن اللغة العربية هي لغة الطبيعة لأنها محاكاة وتقليد لها وأصوات الطبيعة منذ وجودها حتى اليوم هي هي لم تتغير ولم تتبدل فالخرير هو هو، والبخبخة هي هي، والشخير هو هو، إلى آخره من عشرات الألفاظ التي تصدر من أصحابها بصورة تلقائية والتي أحصيت منها (٤٥٠) لفظة.

الدليل الثاني: أنَّ اللغة العربية تنسجم مع الجهاز الصوتي عند الإنسان فالطفل الإنكليزي -مثلاً- يستطيع أن ينطق -في سنته الأولى من عمره- حروف الحلق "العين والغين، والحاء، والخاء، والهاء، والهمزة" في مناغاته وليس في لغة أبويه مثل هذه الأصوات[1] ويصبح عاجزاً عن التلفظ بها حين يقلدهما، وأما اللغة العربية فتشتمل على حروف الحلق وعلى غيرها من الحروف المعروفة في أبجديتها، ينطقها الصغير والكبير من العرب ومعنى هذا أن اللغة العربية هي لغة الإنسان الأول لأنها تنسجم مع خلقة الجهاز الصوتي التي فطر الله الإنسان عليها فهي

---

[1] دلالة الألفاظ، ص٢٩.

-إذن- لغة الفطرة كما أن الإسلام دين الفطرة ولكن الطفل حين يقلد والديه قد يخرج من لغة الفطرة إلى لغة ثانية ومن دين الفطرة إلى دين ثان.

الدليل الثالث: أنَّ اللغة في أصلها ثنائية الحروف[1] الأول متحرك والثاني ساكن، لأن أصوات الطبيعة تتحصل من حرفين عند محاكاتها ويتكون المضعف الرباعي من تكرار هذا الصوت مثل "القه، والقهقهة" و"الصر، والصرصرة" و"البخ، والبخبخة" و"التم، والتمتمة" و"التل، والتلتلة" و"الدم، والدمدمة" و"الخن، والخنخنة" و"الرج، والرجرجة" و"الطق، والطقطقة" وإلخ...

ولهذا كله فاللغة العربية هي أم اللغات وهي لغة آدم (عليه السلام)... وليس معنى هذا أن "آدم" أو أبناءه أو أحفاده الأوائل يفقهون ألفاظ اللغة العربية كلها، ولكنهم -بالتأكيد- يعرفون ويستعملون جزءاً من الألفاظ التي أسميناها بـ"لغة الطبيعة" أي الأصوات التي تصدر بتلقائية عن الظواهر الطبيعية أو الأشياء حين استعمالها والأحياء حين تعرضها لأثر من المؤثرات المعروفة الداخلية فيها أو الخارجية عنها.. وإذا أراد أن يشير إلى هذه الأشياء ويتحدث مع "حوائه" أو "قابيل" أو "هابيل" فإنه حتماً

---

[1] ذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى أن الأسماء في العربية ثلاثية حرف يبدأ به وحرف تحشى به الكلمة وحرف يوقف عليه، العين ١/٥٥، تحقيق: د.عبد الله درويش، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م، بغداد. وذهب آخرون كالأب مرمرجي، والكرملي إلى الثنائية، دلالة الألفاظ، ص٣٣، واللغة بين العقل والمغامرة، ص٩٤-٩٦.

يقلد أصواتها، وهم يعملون مثله عند الحديث إليه مثلهم مثل الطفل الصغير في عالم اليوم قبل أن يتعلم لغة قومه...

ولو أن "آدم" (عليه السَّلام) لم يعرف إلا لفظة واحدة أو لفظتين لكانت هذه اللفظة وهاتان اللفظتان من اللغة العربية لأنها في أصلها هي لغة الطبيعة وتنسجم مع جهازه الصوتي... وعليه يبطل ادعاء أحد العلماء السويديين في القرن السابع عشر من أن آدم كان يتكلم اللغة الدانماركية[1] ويبطل ادعاء أحد الأتراك سنة ١٩٣٤ من أن اللغة التركية هي الأساس الذي اشتقت منه كل اللغات[2] ولا ينقص من شأن العربية في شيء إن لم تكن أم اللغات أو لم تكن لغة آدم فيكفيها فخراً أنها لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة لقرون عديدة من الزمن.

وما قلناه من أنها أم اللغات أو أنها لغة آدم ليس ادعاءً أو تعصباً ولكن الأدلة المنطقية العلمية السابقة قد قادت إليه وإلى القول به. وفائدة النظرية الصوتية هي

١-اختلف النحاة البصريون والكوفيون وغيرهم في أصل الاشتقاق أهو اسم أم فعل وأتوا بحجج منطقية[3] وعند الرجوع إلى لغة الطبيعة يظهر بوضوح لا مجال للشك فيه أن أصل المشتقات هو الاسم لأن اللفظ الذي يحاكي به

---

[1] دلالة الألفاظ، ص١٤.

[2] السابق، ص١٤.

[3] الأنباري، الأنصاف، ١٢٩/١ المسألة ٢٨.

أصوات الطبيعة ويتألف من حرفين مثل "الصر، والقه" هو اسم لا فعل... وبهذا يترجح تفسير من قصر التعليم في الآية الكريمة على الأسماء فقط بدليلين هما:

أ- ذكر الأسماء في الآية الكريمة ولم يذكر غيرها.

ب- الأصوات الطبيعية تتحصل من حرفين وعند النطق بهما يتحصل لفظ الاسم لا لفظ الحرف أو الفعل...

٣- أن أخذ الأفعال من الأصوات أدى إلى ظهور قسم من الترادف اللغوي نظراً لاختلاف الأصوات التي تخرجها الأشياء في الفعل الواحد أو العمل الواحد... مثال ذلك أفعال السحب نحو "سحب، وجر، وسحل" وأفعال القطع مثل "قطع، وقطم، وقدّ" وأفعال الضرب مثل "خبط، وجلغ، ولبط، ولثط، ولطث" والخ... لأن صوت السحب يخرجه شيء، والجر شيء، والسحل شيء ثالث، ومثله أفعال القطع، فـ"قطع" تخرجه آلة في مادة معينة وهكذا الأمر في "قدّ، وقضم" وفي أفعال الضرب السابقة وفي غيرها من الأفعال...

٤- إن اختلاف نطق قسم من الأفعال نحو "فقس" البيضة أي كسرها و"فقص" و"فقش" وتعدد مصادر الفعل الصوتي نحو "نبح: نَبحاً، ونُبوحاً، ونَبيحاً، ونُباحاً، ونِباحاً، وتَنابحاً" ونحو "نَعق: نَعقاً ونعيقاً، ونُعاقاً، ونَعقاناً" وتنوع نطق قسم من المسميات للمسمى الواحد نحو "الصرصر" أو "الصرصور"

في العربية، و"الصرصيرا" أو "الصيصرا" في السريانية و"الصلوصال" في العبرية[1] راجع إلى اختلاف ذوات الأصوات في أصواتها لاختلاف ذواتها.

وراجع إلى دقة محاكاة الإنسان لها بقدرته وذكائه وبيئته في خشونتها وبداوتها ورقتها وحضارتها، ولهذا تعددت اللغات وتشعبت وكثرت أنواعها واختلفت ألسنة أصحابها...

ج-إن نسبة الفعل الصوتي إلى عدة فاعلين مرده إلى اشتراك الفاعلين وتشابههم في إحداث ذلك الصوت وإيجاده، مثاله الفعل "خفخف" أي صوت "للخنزير، والضبع، والقميص، والقرطاس" ومثل "خرخر" أي غط "للنائم، والنمر، والسنور" و"خضخض" أي حرك للماء ونحوه، و"خشخش" للسلاح والحلي و"خبّ" لهياج البحر، ولضرب من العدو، و"شحج" صوت الغراب والبغل، و"صأى" للفرخ والعقرب، و"غق" الغراب: صوت... والماء إذا صار من سعة إلى ضيق... و"الصرير" صوت القلم والسرير والطشت، والباب، والنعل، و"الصليل" صوت الحديد واللجام والسيف والدراهم والمسامير... وهكذا تقاس بقية أفعال هذا الباب وأصواته.

د-يمكن عد قسم من الألفاظ التي قيل عنها "عامية" من الفصحى بعد عرضها على المجامع العلمية في الوطن العربي استناداً إلى الأصوات التي تخرجها ذواتها مجاراة

---

[1] طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم، ص١١٣، بغداد ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

لما فعله الإنسان القديم في أخذ لغته، ويحتمل أن ماقيل عنه إنه عامي هو من الفصيح ولكن المعاجم اللغوية قد أغفلته وذلك نحو "فرفر الطائر" إذا حرك جناحيه وضرب بهما كما يفعل وهو مذبوح، وفجّ الشيء، فانفج أي شقه، و"طبّ" على وجهه أي سقط، و"الصوصي" فرخ الدجاج عند خروجه من البيضة.

٢-يمكن إعادة قسم من الألفاظ المتباعدة المعنى إلى جذرها الصوتي الأصلي، ويحتاج هذا إلى جهود مشتركة متعاونة وتأمل شديد، وتفكر عميق، وأضرب لذلك مثالين:-

أ- الفعل "حفا- يحفو حفواً شاربه" بالغ في أخذه أي في قصه وهو مأخوذ من الصوت الذي تخرجه آلة الحف... والمعنى فيه مبالغة كما رأينا ومنه أخذ "حفي" أي أكثر السؤال عن حاله، و"حافى محافاة" نازعه في الكلام، وتحفى في الشيء أي اجتهد، وحفي يحفى: أي بالغ في إكرامه...

ب- الفعل "جُنّ، جنّا، وجنونا" الذباب كثر صوته... وجُنّ النبت: إذا طال، مأخوذ منه كأنهم لاحظوا الكثرة والطول فيهما وجنّ: زال عقله... مأخوذ منه أيضاً تشبيهاً له بالذباب وذهابه وإيابه وكثرة صوته... وصوت الذباب ضعيف وخفي قياساً إلى الأصوات الأخرى، ولهذا أخذوا منه "الجني" لاختفائه، و"المجن" لأنه يخفي ما تحته، والظلمة، لعدم إبانة ما فيها... وهكذا لم تبق الكلمة عند معناها الصوتي الأول، وتطورت

وتشعبت فجاءت منها تلك المعاني المختلفة والخفاء، والكثـــرة، وزوال العقل...

- إن النظرية الصوتية قد يستعان بها لتـــسمية المخترعـــات كـــ"الدبابة" مثلاً نظراً للصوت الذي تخرجه... وهي خيـــر مقياس للمفاضلة بين الألفاظ الحديثة التي يستعملها الـــشعب الواحد في بيئاته المختلفة فـــي الأمـــة الواحـــدة فتـــسمية "الشخاطة" في العراق خير من تسمية "كبريتة" في مـــصر، نظراً لصوت "الشخط" الذي يظهره الاحتكاك ما بين العـــود والكبريت.
- يمكن أن يصار إلى لغة عالمية مشتركة يفقهها جميع البشر بالاعتماد على الألفاظ الصوتية ويصبح مثلها مثل الضحك، والبكاء، والموسيقا، والتأوه، والتوجع، والتعجب هو هو في كل زمان ومكان يفهمه الجميع، ويؤديه الجميع.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١-الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، دار المعارف، حلب، سوريا.

٢-الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري، كمال الدين أبو البركات، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ط٣، مصر، ١٣٧٤هـ-١٩٥٧م.

٣-التفسير الكبير، الفخر الرازي، مصر.

٤-جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري محمد بن جرير، دار المعارف، مصر، ١٣٧٤هـ.

٥-الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد، دار الكتب المصرية، ١٣٥٤هـ-١٩٣٥م.

٦-الخصائص، ابن جني، القاهرة، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

٧-دلالة الألفاظ، د.إبراهيم أنيس، ط٣، القاهرة، ١٩٧٢م.

٨-الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، بيروت، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.

٩-العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.عبد الله درويش، بغداد، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م.

١٠- فقه اللغة، الثعالبي، مصر، ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.

١١- الكشاف، الزمخشري جار الله محمود بن عمر.

١٢- اللغة بين العقل والمغامرة، د.مصطفى مندور، الإسكندرية، ١٩٧٤م.

١٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، دار إحيـــاء الكتب العربية.
١٤- من تراثنا اللغوي القديم، طه باقر، بغداد، ١٤٠٠هـــ-١٩٨٠م.
١٥- المورد، العدد الثالث، لسنة ١٩٧٨.

المبحث الثاني

قراءة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

١- **القراءة القرآنية:**

هي طريقة القارئ في ترتيله للقرآن الكريم من وقف أو وصف، وإعراب أو بناء، وتفخيم أو ترقيق، ومد أو إمالة، وغير ذلك من اختلافات وسببها اختلاف الروايات أو اختلاف اللهجات، وعدم وجود النقط، وتأخر الكتابة في ذلك الوقت ورسم المصحف العثماني الذي يحتمل قراءة أو أخرى.

ولابد للقراءة الصحيحة من صحة السند وموافقة قواعد العربية ولو بوجه، والمصحف العثماني ولو احتمالاً...

والقراءات تساعد على إيضاح الأحكام الشرعية، وتيسير النطق على الناس وتدل على شيء من أثريات اللغة في إعرابها وألفاظها، وتساعد في معرفة الأعلام وتواريخهم وفيها نوع من التحدي، لأن قسماً من الكفار قال لو نزلّ القرآن على لهجتنا لأتينا بمثله.

وروى البخاري -بسنده- عن ابن عباس "أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[1].

وروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه قال: "نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرؤوا كيف

---

[1] صحيح البخاري، ١٤٧/٣، باب فضائل القرآن.

شئتم[1] وتأويل هذا أن القرآن نزل على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن، يدل على ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "فاقرؤوا كيف شئتم"[2].

وقال ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن": "وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه".

أولها، الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بنائها بما لايزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها نحو قوله تعالى: ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[3] وأطهر لكم، ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[4] وهل يُجازى إلا الكفور...

والوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو قوله تعالى ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[5] وربُّنا باعدَ بين أسفارنا..

والوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها، بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو قوله ﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[6] وننشزها.

---

(1) فضائل القرآن، ابن كثير، ص٦٣.

(2) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص٣٤.

(3) هود، ٧٨.

(4) سبأ، ١٧.

(5) سبأ، ١٩.

(6) البقرة، ٢٥٩.

والوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً﴾[1] وزقية "كالصوف المنفوش" ﴿كَالْعِهْنِ﴾[2].

والوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها نحو قوله وطلع منضود ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[3].

والوجه السادس: أن يكون الاختلاف في التقديم والتأخير نحو قوله ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[4]. وفي موضع آخر "وجاءت سكرةُ الحق بالموتِ".

والوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[5] وبزيادة "أنثى" في قراءة أخرى[6].

والقراءات سنّة متبعة، وكل قوم من العرب قرؤوا بخصوصيات لغتهم، وعلى ما تطاوعهم به ألسنتهم...

وكان النحاة يفاضلون بين قراءة واخرى، وأحياناً يخطئونها فالأخفش قال في قراءة الأعمش: ماأَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ

---

[1] يس، ٢٩.

[2] القارعة، ٥.

[3] الواقعة، ٢٩.

[4] سورة ق، ١٩، والنشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ٢٢٨/١.

[5] سورة ص، ٢٣.

[6] تأويل مشكل القرآن، ٣٤٥/٢.

بِمُصْرِخِيَّ[1] بكسر الباء: إنها لحن لم نسمع به من أحد من العرب ولا أهل النحو[2] وقال في قراءة نافع "ميسُرة" بضم السين من قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[3] إنها ليست بجائزة لأنه ليس في الكلام "مفعُلة"[4] ورفض قراءة ابن عامر، وعاصم، والكسائي: "وأرجلكم" بالكسر في قوله تعالى ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾[5].

وقال المازني: "فاما قراءة من قرأ من أهل المدينة "معائش" بالهمزة فهي خطأ فلا يلفت إليها، وإنما أخذت عن نافع بن أبي نعيم، ولم يكن يدري ما العربية، وله أحرف يقرؤها لحناً نحواً من هذا"[6] وقال الفراء: إن قراءة الرفع أجود من النصب في قوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾[7] لأن أما تطلب الأسماء وتمتنع من الأفعال فهي بمنزلة الصلة للاسم[8] والقراءات الصحيحة يرجع سندها إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنه أحياناً -ينفرد بقراءة- كما ينفرد الآخرون- يقرأ بها ويفضلها على

---

[1] إبراهيم، ٢٢.

[2] معاني القرآن، الأخفش، ٣٢٤/٢.

[3] البقرة، ٢٧٩.

[4] معاني القرآن، الأخفش، ٨٨/١.

[5] المائدة، ٦.

[6] المنصف، ٣٠٧/٢.

[7] فصلت، ١٧.

[8] القراءة، معاني القرآن، ١٤/٣.

غيرها من القراءات التي أخذت عنه، لأسباب منها معنوية، ومنها ذكريات محببة لها أثرها في النفس، ومنها صوتية، ومنها... ومنها... كما سنرى ذلك في أثناء البحث، وسأشير إلى قراءة المصاحف التي أخذت عنه بالقراءة العامة وقراءته التي انفرد بها في القراءة الخاصة وقد قسمتها أربعة أقسام هي "مايتعلق بالمعنى":-

أ- قراءة المصاحف العامة "من أنفسهم" في قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] بضم الفاء وكسر السين وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة "من أنفَسِهم" بفتح الفاء[2] من "النفاسة" وكأنها جاءت رداً على المشركين الذين تمنوا نزول القرآن على الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، لأنهم يرون أن العظمة في الرياسة التقدم في الدنيا وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً[3] وجاءت هذه الآية تنعى عليهم ذلك وتقول لهم: إن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) من أنفس الناس شرفاً ومجداً ولا يقل عن الوليد أو عروة بل هو أعظم منهما حسباً وأفضل نسباً، كما تقول لهم: إذا كنتم لاتستطيعون تدبير المعيشة في

---

[1] آل عمران، ١٦٤.

[2] الكشاف، ٤٧٦/١.

[3] الكشاف، ٤٦٥/٣.

الدنيا فكيف تدبرون أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى[1] ذلك كله قد جاء في سورة الزخرف بقوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾[2] ومما يعزز قراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن المعنى يكتمل من غير "أنفس" وأنها جاءت في سورتي "النحل"، "ق" من غير أنفس في النحل في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾[3] وفي "ق" في قوله ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[4].

ب-قراءة المصاحف العامة في سورة الواقعة "روح" بفتح الراء بمعنى الاستراحة في قوله: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[5] وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) التي انفرد بها "فرُوح" بضم الراء بمعنى الرحمة، لأنها كالحياة للمحروم، وقيل: البقاء، أي فهذان له معاً وهما الخلود مع الرزق، لأن الريحان هو "الرزق"[6].

---

[1] السابق، ٣/٤٨٦.

[2] الزخرف، ٣١، ٣٢.

[3] النحل، ١١٣.

[4] ق، ٢.

[5] الواقعة، ٨٨، ٨٩.

[6] الكشاف، ٤/٦٠.

جـ-**التجرد والزيادة**: قراءة المصاحف العامة "يؤتون ماآتوا" من الإيتاء وهو الإعطاء في سورة "المؤمنون" في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1] وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة "يأتون ماأتوا"[2] أي يفعلون مافعلوا، والفعل أعم من الإعطاء إذ يشمله ويشمل غيره، ولكن لا مشاركة فيه كالإيتاء، وعن عائشة (رض) أنها قالت: قلت يارسول الله هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف؟ قال: "لا يابنة الصديق ولكن هو الذي يصلي ويتصدق، وهو على ذلك يخاف الله ان لايقبل منه"[3].

د- **إبدال كلمة بأخرى**: قراءة المصاحف العامة في سورة الواقعة ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[4] وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة إبدال "شكركم" بـ"رزقكم" فجاءت "وتجعلون شكركم بأنكم تكذبون"[5] القراءة العامة كما قال الزمخشري على حذف المضاف يعني وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، أي وضعتم التكذيب موضع

---

[1] المؤمنون، ٦٠.

[2] الكشاف، ٣/٣٥.

[3] السابق، ٣/٣٥.

[4] الواقعة، ٨١، ٨٢.

[5] الكشاف، ٤/٥٩.

الشكر"[1] والمعنى على القراءة الخاصة، وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون، وقيل نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها، والرزق المطر: يعني وتجعلون شكر مايرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم"[2].

ومن الناحية النحوية أنه إذا أمكن نسبة العمل إلى الموجود لم يصر إلى مجاز الحذف، والآيات السابقة واللاحقة ترجع "شكركم" ونصها للمتأمل ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[3].

٢-<u>التوكيد والإيضاح</u>:

أ- قراءة المصاحف العامة في سورة الزمر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[4] وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة بإضافة "ولا يبالي" بعد كلمة "جميعاً"[5] ولها مبرران:

---

[1] السابق، ٥٩/٤.

[2] الكشاف، ٥٩/٤.

[3] الواقعة، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢.

[4] الزمر، ٥٣.

[5] الكشاف، ٤٠٣/٣.

الأول: قياساً على الآية الخامسة عشرة من سورة الشمس "ولايخاف عقباها" بعد قوله ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾[1].

المبرر الثاني: إنها جاءت طمأنة لليائسين، والطمأنة تحتاج لنهي عن اليأس والتلويح لليائس بالرحمة والمغفرة ونسبتها إلى الله وتوكيد الأخبار بالجملة الفعلية المتجددة، وتقديم فاعلها، وتوكيده بـ"إن" والضمير "هو" والإخبار عنها بصيغتي مبالغة معرفتين بـ"ال" هما "الغفور الرحيم" وهذا كله يبرر مجيء "ولا يبالي" في قراءة الرسول الخاصة في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2].

ب-قراءة المصاحف العامة في سورة البقرة ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾[3] وقراءة الرسول الخاصة بإضافة "صلاة العصر" بعد كلمة "الوسطى" فصارت "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر" في القراءة الأولى ذكر الخاص بعد ذكر العام وفي قراءة الرسول اتبعها بعطف بيان لمنع اللبس في تعيين المقصود بالصلاة الوسطى.

---

[1] الشمس، ١٥.

[2] الزمر، ٥٣.

[3] البقرة، ٢٣٨، والكشاف، ١/٣٧٦.

٣- **فعل الأمر "قل" وحذفه:**

قراءة المصاحف العامة في سورة الإخلاص بإثبات الفعل "قل" ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[١] وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة بحذف "قل" أي "الله أحد"[٢].

قال ابن خالويه "فإن سأل سائل لم تثبت "قل" في أوائل هذه السورة، وفي أوامر الله تعالى وأنت إذا قلت لآخر: قل لا إله إلا الله، أجابك فقال لا إله إلا الله ولم يقل: قل: لا إله إلا الله؟ فالجواب: أن الله تعالى أنزل القرآن على لسان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بلسان الروح الأمين، فمعناه قال لي جبريل، "قل هو الله أحد" فحكى النبي ماألقي إليه"[٣].

٤-**التوحيد:**

أ- **توحيد الأصوات:** إن كلمة "باسقات" في قوله تعالى ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[٤] هي القراءة العامة، وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) "باصقات" بالصاد[٥] لأن القاف صوت شديد يفخم أحياناً[٦] يناسبه الصاد المفخم، ولا يناسبه

---

[١] الإخلاص، ١.

[٢] الكشاف، ٢٩٨/٤.

[٣] إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه، ٥٤٤/٢.

[٤] سورة ق، ١٠.

[٥] الكشاف، ٥/٤.

[٦] علم الأصوات اللغوية، د.مناف الموسوي، ص٨٢.

السين المرقق، وقراءة الرسول الخاصة جاءت صدى لتناسب الأصوات، وإبدال الحروف بعضها بالآخر من أجل الإنسجام الصوتي، وهي تناسب الطول الذي هو صفة من صفات النخيل، تفخيم اللفظ جاء مناسبة للجرس الداخلي في اللفظ ومنسجماً والمبالغة في طول النخلة وعظمة خالقها ولما لها من مكانة في نفس زارعها.

ب-القراءة العامة في سورة الكوثر هي ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1] بالعين: "أعطيناك" وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) "انطيناك"[2] على الاستنطاء أي بقلب العين نوناً، والنون أحلى من العين، وأسهل منها صوتاً، وتنسجم والنون التي تليها، ولكن الرسول من قبيلة قريش، وقبيلته لاتقلب العين، نوناً في مثل هذه الحالة، فمن أين جاءه الاستنطاء؟ ولماذا يقرأ به؟ ولا عجب، فسيرته تفصح عن ذلك، فهو ولد في شهر ربيع الأول عام الفيل، وبعد ولادته دفع إلى مرضعته حليمة السعدية وأعادته في سنته الخامسة إلى أمه آمنة بنت وهب. ولما صار عمره "٥٤" سنة هاجر إلى المدينة وعاش مع الأنصار والمهاجرين (٩) سنوات ثم وافاه الأجل وعمره (٦٣) سنة، وعلى هذا فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تعلم اللغة في طفولته في قبيلة حليمة السعدية، وأحب الأنصار حتى قال فيهم

---

[1] الكوثر، ١.

[2] الكشاف، ٤/٢٩٠، وإعراب القراءات السبع وعللها، ٢/٥٣٧.

"ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار".

واللغة محاكاة، والإنسان يحاكي لغة القوم الذين يعيش بينهم، وعليه الصلاة والسلام تعلم في طفولته لهجة بني سعد قوم مرضعته حليمة السعدية، وتأثر في كبره بلغة الأنصار وحاول أن يقلد شيئاً منها ليكون قريباً من قلوبهم... والاستنطاء هو لهجة قبيلة حليمة السعدية، ولهجة الأنصار، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ بها لخفتها ولأنها تثير فيه ذكريات حلوة... ذكريات الطفولة وذكريات الأنصار الذين قاسموه حلو الحياة ومرها...

ت-توحيد الضمائر: قراءة المصاحف العامة في سورة الذاريات ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّـهَ هُـوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1] فيها التفات من المتكلم "أريد" إلى الغيبة "إن الله" وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) "إني أنا الرازق"[2]. لا التفات فيها، وبها توحيد ضمائر المتكلم "ما أريد.. وما أريد وإني أنا" فصارت الآيتان "ما أريد منهم من رزق، وما أريد أن يطعمون، إني أنا الرازق ذو القوة المتين".

---

[1] الذاريات، ٥٧، ٥٨.

[2] الكشاف، ٢١/٤.

ث-توحيد أزمنة الأفعال: قراءة المصاحف العامة في سورة الشمس ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[1] فعلان ماضيان "دمدم" و"سوى" وفعل مضارع "يخاف" مسبوق بـ"لا" النافية التي حصرت زمنه بالاستقبال، وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة "ولم يخف عقباها"[2] بفعل مضارع مجزوم بـ"لم" التي تقلب زمن المضارع إلى الماضي كما أشار إلى ذلك المتنبي بقوله:

إذا كنت ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

وبدخول "لم" على "يخف" توحدت أزمنة الأفعال وصارت كلها ماضية "دمدم، سوى، ولم يخف".

جـ-توحيد الفواصل: قراءة المصاحف في سورة طه "لذكري" على التقييد أي لذكر الله فقط وليس فيها مناسبة للفواصل في قوله تعالى ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[3] وقراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاصة "للذكرى"[4] على الإطلاق وهي تناسب فواصل الآيات من الآية الأولى وحتى الآية الرابعة والعشرين إذ كلها تنتهي

---

[1] الشمس، ١٤، ١٥.

[2] الكشاف، ٢٦٠/٤.

[3] طه، ١٤.

[4] الكشاف، ٥٣٢/٢.

بالألف ومنها ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[1] والظاهر -والله أعلم- أن الذي قرأ بالياء "لذكري" جمع بين قراءتين إحداهما بالإمالة والثانية من غير إمالة... ويتضح من خلال العرض أن قراءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمناحيها الأربعة تنسجم ومبادئ الإسلام العامة، فالمعنى هو روح التركيب، والإسلام هو روح الحياة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2] والتوضيح يتفق ووضوح مبادئ الإسلام التي جاءت بأحلى الألفاظ وبأبين الأساليب قال سبحانه ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] والخفة تتسق وطبيعة الإسلام التي لا ترهق الناس ولا تثقل عليهم، ولا تأمرهم إلا بما هو في نطاق قدراتهم ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[4] وأما التوحيد فينسجم تمام الإنسجام والركن الأول من أركان العقيدة التي أمرنا بها في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[5].

---

[1] طه، ١٣، ١٤، ١٥.

[2] الأنفال، ٢٤.

[3] آل عمران، ١٣٨.

[4] البقرة، ٢٨٦.

[5] الإخلاص، ١.

المبحث الثالث

(التقديم)
في القرآن الكريم

التقديم في القرآن الكريم

التقديم هو جعل الشيء سابقاً على غيره، والألفاظ في كلام العرب على قسمين: قسم متقدم أصلاً وقسم متأخر عنه فالمبتدأ مقدم على الخبر وهو الأصل، والفعل مقدم على الفاعل والمفاعيل والمتعلقات، والمميّز مقدم على التمييز، وصاحب الحال على الحال نفسها، والشرط على الجزاء وهكذا...

وقد يقضي المعنى ومناسبات القول وظروفه تقديم ما حقه التأخير للأهمية والاختصاص، وإن كانت الألفاظ كلها مهمة تساعد على إظهار المعنى وبيانه قال سيبويه: "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم[1] لهذا يقدم الخبر على المبتدأ نحو "أقائم زيد؟" والمفعول على الفاعل نحو: درّس محمداً زيد، أو على الفعل والفاعل نحو محمداً درس زيد، والحال على صاحبه نحو "لمية موحشاً طلل" والفاعل على فعله نحو: زيد جاء، والجزاء على شرطه نحو: أنت ناجح إن درست، عند مَن يجيز ذلك؟

وقسم النحاة التقديم على جوازي ووجوبي، وحصروا أبوابه وأحصوها وعللوا بعضها وتركوا أكثرها من غير تعليل...

ولم يقتصر كلامهم على اللفظ الظاهر بل تعداه إلى اللفظ المحذوف فقسموه على قسمين: قسم يقدر قبل المعمول وهو الغالب كقولك: زيداً، لمن رأيته يعطي الناس، أي: اعط زيداً

---

[1] الكتاب، سيبويه، ١/١٥.

وقسم يقدر بعده وهو القليل كتقديرهم متعلق شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أي بسم الله أبدأ، لئلا يفوت الغرض من حذفه، والبداية بالاسم المحبوب المعظم.

وتكلم البلاغيون على التقديم أيضاً وذكروا شيئاً من أسبابه والمعاني المترتبة على تقديم اللفظ أو تأخيره، واستلهم الجميع شواهدهم من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب شعراً ونثراً.

والألفاظ في كلام الله محسوب لها حسابها في تقديمها أو تأخيرها وتقييدها أو إطلاقها، وتأكيدها أو تركها بغير تأكيد، وفي استعمال لفظ في مكان واستبدال لفظ آخر به، وكل ذلك في نسق لطيف وترتيب جميل.. وألفاظ القرآن في تقديمها الجوازي على قسمين: قسم يقدم مرة ويؤخر في ثانية، يقدم لمعنى ويؤخر لمعنى آخر، وقسم أثبته المعنى متقدماً دائماً كصفة القوي مثلاً.

فما يقدم مرة ويؤخر أخرى بحسب ظروف القول ومتطلبات المعنى "السماوات والأرض" فالسماوات جمعاً ومفرداً تقدم في الغالب على "الأرض: لعظمتها ولكونها غيباً وأدل على قدرة الله وعظمته، ولأن بعض الأفعال التي تسند إليها لاتحدث إلا من علو إلى دنو كالفعلين "أنزل، ووقع"، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[1] وقوله: ﴿وَيُمْسِكُ

---

[1] الحج، ٦٣.

السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1] ولكن الأرض قدمت عليها عندما كان الحديث عن أهلها وعن شؤونهم وأحوالهم وأعمالهم قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ومثله تقديم "هذا" على "نحن وآباؤنا" في سورة النمل في قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾[3] وتقديم "نحن وآباؤنا" على "هذا" في سورة "المؤمنون" في قوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ﴾[4] وذلك لأن الاهتمام بالبعث –هذا– في سورة النمل بدلالة كثرة الحديث عنه وعن الآخرة فيها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[5] ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[6].

---

[1] الحج، ٦٥.

[2] يونس، ٦١.

[3] النمل، ٦٨.

[4] المؤمنون، ٨٣.

[5] النحل، ٢١.

[6] النمل، ٦٥-٦٦.

ولأن الاهتمام بالمبعوث بـ"نحن وآباؤنا" في سورة "المؤمنون" أكثر بدلالة كثرة الأفعال والأوصاف التي تتحدث عنهم فيها: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1].

ومنه تقديم "قوامين بالقسط" على "شهداء لله" في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[2] وتقديم "قوامين لله" على "شهداء بالقسط" في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] لأن الآية الأولى مسبوقة بالتحدث عن الغنائم "ثواب الدنيا" ومتلوة بالنهي عن اتباع الهوى وترك العدالة "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا" لذلك أمر الله فقال ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ لأن العدالة في توزيع الغنائم هي الركن الأساس ثم قال "شهداء لله"، وأما الآية الثانية فقدم "قوامين لله" لأنها مسبوقة بالحديث عن الصلاة وإقامتها لله، ولأنه يذكر الميثاق الذي أعطوه للرسول بأن ينصروا الله ورسوله وأن يكونوا على أهبة الاستعداد في السمع والطاعة وذلك ماينا سبه الإقامة لله فقدم "لله" على "القسط" وقال "قوامين لله شهداء بالقسط".

ومنه تقديم ضمير الآباء مرة، وتقديم ضمير الأولاد مرة، "نرزقكم وإياهم"، "نرزقهم وإياكم" في قوله تعالى ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ

---

[1] المؤمنون، ٨٢.

[2] النساء، ١٣٥.

[3] المائدة، ٨.

أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1] وقوله ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾[2] فـ"من إملاق" الفقر موجود فعلاً.. فيقول الله: "نحن نرزقكم وإياهم" لأن الإنسان يكون مشغولاً برزقه أولاً مادام الفقر موجوداً يبحث عن طعامه هو أولاً ثم يبحث عن طعام من سيأتي به من أولاده همّ الإنسان هنا هو البحث عن طعامه وطعام زوجته فخاطبه "نحن نرزقكم وإياهم". يطمئنه على رزقه الذي هو شغله الشاغل ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق أولاده، فيقول له: أنت لك رزقك وهم لهم أرزاقهم لن يأخذوا من رزقك شيئاً، والآية الثانية "نحن نرزقهم وإياكم" الإنسان فيها ليس مشغولاً برزقه لايخشى الفقر، عنده مايكفيه ولكنه يخاف إن رزق بطفل أن يصاب بالفقر لأن الطفل يأخذ جزءاً من الرزق فيصبح الرزق لايكفيه هو وطفله ومن هنا فإن هذا الإنسان يخاف إنجاب الأطفال فطمأنه على أن الأولاد لن يأخذوا من رزقه شيئاً[3] ومنه قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[4] وقوله ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[5] قدم "مواخر" على الجار والمجرور في النحل وقدم "فيه" على "مواخر" في فاطر، وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل فذكر الأنعام

---

[1] الأنعام، ١٥١.

[2] الإسراء، ٣١.

[3] معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، ٥٧-٥٨، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ومعترك الأقران، ٢٧٨/١.

[4] النحل، ١٤.

[5] فاطر، ١٢.

وأنها تحمل الأثقال وذكر الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ثم ذكر الفلك وهي وساطة نقل أيضاً فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] قدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائل النقل، وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2] ثم قال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3] فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم.

فلما كان الكلام على البحر قدم ضميره على المخر فقال: "وترى الفلك فيه مواخر".. فلما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به[4].

---

[1] النحل، ١٤.

[2] فاطر، ١١.

[3] فاطر، ١٢.

[4] التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، ص٦٥، بغداد، ١٩٨٧.

والأصل في المفعول أن يؤخر عن الفعل والفاعل وفي قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[1] قُدم مفعولا الفعلين الأول والثاني لمعنى، وأُخِرَ في الفعل الثالث لمعنى، فقدم مفعولا "نعبد ونستعين" لقصر العبادة والاستعانة على الله وحده دون غيره، ولو جاء الأسلوب على "نعبدك ونستعينك" لجاز أن ينصرف الذهن إلى عبادته والى عبادة غيره، والاستعانة به وبغيره، ولكن التقديم أوجب أن تكون العبادة له وحده، والاستعانة مقصورة عليه دون سواه، وأُخرَ مفعول "اهدنا" ولم يقل "إيانا اهد" لأن القصر غير مراد، ولا مطلوب بل هو خلاف القصد، لأنه لو قال "إيانا اهد" لوجب أن تكون الهداية لنا فقط، وهذا غير مطلوب، لأن المطلوب هو هدايتنا وهداية غيرنا، لذلك أخر المفعول وجاء التركيب "اهدنا" لتكون الهداية للجميع ولا تقتصر على فئة وتمنع عن فئة أخرى...

وفي قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[2] أخر "به" عن "آمنا" وقدم "عليه" على الفعل "توكلنا" لأن الإيمان لم يكن منحصراً في الإيمان بالله بل لابد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر مما يتوقف صحة الإيمان عليه بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم... لذلك قدم

---

[1] الفاتحة، ٥-٦.

[2] الملك، ٢٩.

الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً ليتوكل عليه[1].

وفي قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[2] أخر "فيه" وقدمها في قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ، بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[3] فأخر "فيه" ولم يقل: لا فيه ريب، لأن في قوله: "لا ريب فيه" نفى الريب عنه ولم يتعرض لغيره من الكتب السماوية الأخرى بنفي أو إثبات، ولو قال: لا فيه ريب، لنفى الريب عنه فقط وبالتلازم لأثبته لغيره، وقد ينسحب على الكتب السماوية الأخرى وهذا خلاف القصد، وشك فيما سبق القرآن من "تنزيلات، وهو غير مراد... وقدم" فيها، وعنها في "لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون" لينفي عنها على وجه الخصوص وجود الغول أي الفساد والهلاك بخلاف خمور الدنيا، وليجعلها خالية من ذهاب العقل أي النزف، بتقديم الجار والمجرور –عنها– ولو أخر شبه الجملة "فيها، وعنها" لما تحصل هذا المعنى أي معنى القصر، قال الزمخشري: "فإن قلت: فهلا قدم الظرف على "الريب" كما قدم على الغول في قوله تعالى –لَا فِيهَا غَوْلٌ– قلت: لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل ولا كذب كما

---

(1) التفسير الكبير، ٣٠/٧٦ والكشاف، ٤/١٤٠، والتعبير القرآني، ص٤٩.

(2) البقرة، ٢.

(3) الصافات، ٤٥-٤٧.

كان المشركون يدعون، ولو أولى الظرف لقصد إلى مايبعد عن المراد وهو أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله – لا فيها غول– تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قال: "ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة"[1] و"القاعدة إن تقديم المسند يفيد حصر المسند إليه لذا عد قصراً للموصوف على الصفة: أي الغول مقصور على عدم الحصول في خمور الجنة لا يتعداه إلى عدم الحصول فيما يقابلها أو عدم الغول مقصور على الحصول فيها لا يتجاوزها إلى الحصول في هذه الخمور[2].

و"القوي" و"المشرق" و"الأكل" و"الصلاة" مما أثبته القرآن متقدماً دائماً وكأنه متقدم وجوباً، فحيثما جاءت كلمة المشرق في القرآن الكريم فإنها تقدم على المغرب، وكذلك المشارق على المغارب، والأكل قبل الشرب والصلاة قبل الزكاة لأن الشروق بداية والمغرب نهاية وبداية الشيء مقدمة على نهايته ولأن الشروق دليل على النور والخير وعدم الخوف ولأنه مناسب لرسالة الإسلام في تنوير الناس، ولصفة الله في قوله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3] ولأن الغروب دليل على الظلام والخوف واختفاء ما لا يؤمن شره، ولأن الشرب يدفع الأكل ويسهل سيره

---

[1] الكشاف، الزمخشري، ١/١٥.

[2] حاشية الكشاف، ١/١١٥.

[3] النور، ٣٥.

وهضمه، ولأن الصلاة عمود الدين، وتكرر في اليوم خمس مرات، وأنها تشتمل على زكاة أيضاً، لأنها تضحية بالوقت الذي يجلب المال الذي يتزكى منه قال تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[1] وقال ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[2] وقال ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[3] ووردت أموال وأولاد تسع مرات قدمت الأموال على الأولاد فيها تدرجاً من الأقل نفاسة إلى الأكثر منها إضافة إلى أن المال طريق للزواج والأولاد قال تعالى ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾[4] وقال ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[5] وحينما اجتمعت "الأموال والأنفس" وسبقت بفعل الجهاد قدمت الأموال على الأنفس كقوله تعالى ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[6] صعوداً من الأقل أهمية "الأموال" إلى الأكثر أهمية "الأنفس" ولكنها أي الأنفس قدمت على الأموال في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾[7] لأن

---

[1] المعارج، ٤٠.

[2] الأعراف، ٣١.

[3] البقرة، ٢٧٧.

[4] التوبة، ٥٥.

[5] آل عمران، ١٠.

[6] التوبة، ٨٨.

[7] التوبة، ١١١.

الشيء الثمين وهو الأنفس يليق بشراء الله ويناسب صدق الإيمان عند الذين يحبون الله ورسوله فيقدمون من أجل ذلك أعز ما لديهم.

وإذا اجتمع مايدل على السر والعلانية فعلاً أو اسماً وجاء بعد علم الله قدم السر على العلانية، لأنه أدل على قدرة الله وعظمته وعدم خفاء أي شيء عليه قال تعالى ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[1] إلا إذا كان مناسبة للفاصلة "يعلم السر وأخفى" كما سيأتي.

وإذا اجتمع ذلك في إنفاق المؤمنين قدم ما ينفق سراً على ما ينفق علانية أو جهراً، لأن الإنفاق في السر أحب إلى الله والرسول والناس من غيره قال تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾[2] وقال سبحانه ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾[3] وقال ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾[4] وصفات الله يقدم بعضها على بعض، وقد يلازم قسم منها مكاناً معيناً لا يتعداه فصفة "القوي" جاءت مع صفات أخرى إحدى عشرة مرة قدمت فيها على كل صفة، لأنها أدل على قدرته وسلطانه وعظمته قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[5] وحيثما

---

[1] النحل، ١٩.

[2] البقرة، ٢٦٤.

[3] الرعد، ٢٢.

[4] النحل، ٧٥.

[5] الحج، ٧٤.

اجتمعت صفة "العزيز" مع غيرها باستثناء صفة "القوي" فإن صفة "العزيز" تكون متقدمة، لأن معنى العزيز هو الذي لا يغلب، لتكون صفات حكمته وغفرانه متأتية عن عزة وقوة لا عن ضعف وعدم مقدرة، ومن ذلك "العزيز الحكيم" و"العزيز العليم" و"العزيز الرحيم" و"العزيز الحميد" و"عزيز غفور" و"العزيز الوهاب" و"العزيز الكريم".

وقد اجتمعت لفظة "سميع" و"عليم" أربعاً وثلاثين مرة قدمت فيها صفة "سميع" على صفة "عليم"، لأن السمع من الحواس الدائمة العطاء، ولأن السمع سبب من أسباب العلم، قال تعالى ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

والرحمة هي الرقة والمغفرة والتعطف، والرأفة أشد الرحمة[2] والرأفة تقدم على الرحمة في القرآن من تقديم الأكثر على الأقل قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[3] واجتمعت صفة "رؤوف" و"رحيم" تسع مرات قدمت فيها جميعاً كلمة "رؤوف" على "رحيم" قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4] والكلمتان "عليم وحكيم" يقدم إحداهما على الأخرى بحسب المقام لكن كلمة "حكيم" قدمت على "عليم" في سورة الأنعام كلها لأن الحديث فيها عن الحكمة والأحكام وقدمت

---

[1] آل عمران، ٣٥.

[2] المنجد، مادة رأف، ص٢٢٥.

[3] الحديد، ٢٧.

[4] التوبة، ١١٧.

كلمة "عليم" على "حكيم" في سورتي "يوسف والنور" لأن الحديث فيهما عن العلم أظهر من الحكمة، والله أعلم.

وقد تتبعت "التقديم" في القرآن الكريم ورددته إلى عشرة أقسام بأسبابها هي:

١- رعاية الفاصلة أو السجعة أو المشاكلة بين نهايات الآيات:

هذا كثير في القرآن الكريم لايكاد يحصى يؤخر من أجله الأهم وتؤثر جملة على أخرى، ويؤتى بلفظة دون سواها، وقد عدّ السيوطي أربعين حالة من أجل الإتيان بالسجعة، ومن ذلك قوله تعالى ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] فإنه سبحانه وتعالى أخر السموات عن الأرض ليصفها بـ"العلى" وقدم الفاعل "الرحمن" على فعله "استوى" وأتى بلفظة "الثرى" دون التراب، وأخر الأدل على قدرته والذي أشار إليه بـ"وأخفى" كل ذلك من أجل تكوين الفاصلة والمحافظة عليها. ومنه أن "موسى" (عليه السلام) قدم على أخيه هارون في كل آية وردا فيها عدا آية واحدة قُدم فيها "هارون" على "موسى" في قوله ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[2]. وذلك لأن فواصل سورة طه أكثرها ينتهي بالألف ومنه تقديم "الآخرة" على "الأولى"

---

[1] سورة طه، ٤، ٥، ٦، ٧.

[2] طه، ٧٠.

في سورة النازعات فقال ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[1].

٢- تقديم السبب على المسبب:

السبب مقدم عقلاً وتطبيقاً على مسببه، فالعلة قبل المعلول والمحدث قبل الحدث وهذه هي سنة الحياة والكون، ومن ذلك أن كلمتي "سميع عليم" وردتا في القرآن الكريم "٣٤" مرة و"سميع بصير" وردتا "٨" مرات كلها قدم فيها "سميع" على "عليم" أو على "بصير" لأن السمع طريق مهم في العلم والبصيرة، وسبب من أسبابهما، ولأن السمع يؤدي مهمته أولاً وقبل الولادة والإبصار ثانياً بعد الولادة بعشرة أيام ولأن مركز السمع في الفص الصدغي للمخ ومركز البصر في الفص الخلفي منه فيقدم السمع على البصر تبعاً للترتيب في المخ[2] ووردت كلمتا "صم بكم" في القرآن الكريم "٥" مرات قدمت فيها كلمة "صم" في أربع منها، لأن الصمم سبب في "البكم" فالذي لا يسمع يكون أخرس لا يتكلم قال تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾[3] ومنه تقديم غض البصر على حفظ الفروج في قوله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا

---

[1] النازعات، ٢٤، ٢٥، ٢٦.

[2] الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، محمد السيد ارناؤوط، ص٩٨، الإعجاز العلمي في الإسلام "القرآن الكريم"، محمد كامل عبد الصمد، ص٢٣١-٢٣٢، الدار المصرية اللبنانية.

[3] البقرة، ١٨.

مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[1] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[2]، لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه[3] ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[4].

فـ"قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي، لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً لأرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم[5].

---

[1] النور، ٣٠.

[2] النور، ٣١.

[3] الكشاف، ٣/٦١.

[4] الفرقان، ٤٨-٤٩.

[5] الكشاف، ٣/٩٥-٩٦.

٣- التنبيه على خصوصية ما:

يهتم المتحدث بشيء فيقدمه على الأهم منه وإن كان المتأخر أكثر أهمية، لفتاً للنظر وجلباً للانتباه من ذلك تقديم "اليتيم، والسائل" على التحدث عن نعمة الله وذكره في قوله ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١] اهتماماً وحظاً للناس على تجنب القهر، والنهر، وأمراً بالابتعاد عن كل مايؤذيهما أو يومئ إلى الإساءة إليهما، لئلا يشعرا باليتم وقسوة الفقر والحاجة ومنه أيضاً تقديم "الوصية" على قضاء الدين في قوله ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[٢] لأن الوصية مشبهة للخيرات في كونها مأخوذة من غير عوض فإخراجها مما يشق على الورثة ولا تطيب أنفسهم بها فكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين وأن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه فلذلك قدمت على الدين بعثاً على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها مع الدين[٣].

٤-تقديم ما هو أجدر في إحداث الفعل:

ومنه قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾[٤] وقوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٥]

---

[١] الضحى، ٩، ١٠، ١١.

[٢] النساء، ١١.

[٣] الكشاف، ٥٠٨/١-٥٠٩، محاسن التأويل، القاسمي، ١١١٤٤/٥.

[٤] المائدة، ٣٨.

[٥] النور، ٦.

وقوله ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[1].

ففي هذه الآيات قدم "السارق" على "السارقة" لكون الرجل أجرأ من المرأة على إحداث السرقة، وهي في الرجال أكثر..، وقدمت لفظة الزانية على "الزاني"، لأن المرأة لو لم تسمح للرجل ولم تسهل له لابتعد عنها، وقدم "الزاني" على "الزانية" في الزواج لأن الرجل الزاني هو الذي يخطب "الزانية" لزواجها، قال الزمخشري "قدمت الزانية على الزاني أولاً ثم قدم عليها ثانياً..، لأن المرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع فيها ولم يتمكن منها فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدأ بذكرها، وأما الثانية فمسوقة النكاح، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب[2].

٥-تعجيل المسرة مراعاة للحالة النفسية:

يقدم المتكلم في حديثه ما يعلم ليبني عليه حديثاً، ويقدم ما يحب وربما يكرره تلذذاً بذكره ويقدم ما يجلب إليه الانتباه والأسماع، وربما يؤخره ليجعل السامع متشوقاً لمعرفته، فالمتحدث لابد أن يأخذ في حسبانه حالة سامعيه في تحريك مشاعرهم وإثارة عواطفهم في تقديمه أو تأخيره أو ذكره وحذفه أو إيمانه وعلى ذلك جاء تقديم فعل العفو في قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ

---

[1] النور، ٣.

[2] الكشاف، ٣/٥٠ والإعجاز الطبي في القرآن، ص١٢٣.

عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَـاذِبِينَ﴾[1] مراعاة لمشاعر الرسول وإكراماً له وبشارة في أول الآيـة لـئلا يمتلأ حزناً وهماً وهو من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الـصلاة والسلام[2].

٦-تقديم من أجل الاستذكار والتعجب:

لكل لغة خطوط عامة في ترتيب ألفاظها في أثناء التراكيب، فاللغة العربية الأصل في ترتيبها الفعل قبل الفاعل، والمبتدأ قبـل الخبر، والمفعول الأول قبل الثاني وهكذا، ولكنه قد يخالف ذلـك الترتيب فيقدم المؤخر على ما حقه التقديم لسبب من أسباب التقديم كالاستذكار والتعجب والإشارة إلى ما لا يمكن تصوره.

ومنه تقديم لفظ الجلالة "الله" على "شركاء" في قوله ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ﴾[3] استعظاماً أن يتخذ لله شريك كائناً من كـان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك ومنه تقديم الخبر "راغب" على المبتدأ "أنت" في قوله تعالى ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَـنْ آلِهَتِـي يَـا إِبْرَاهِيمُ﴾[4]، لأن الخبر "كان أهم عنده.. وأغنى وفيه ضرب مـن التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب

---

[1] التوبة، ٤٣.

[2] الكشاف، ١٩٢/٢.

[3] الأنعام، ١٠٠.

[4] مريم، ٤٦.

عنها[1] ومن ذلك تقديم "مانعتهم" على "حصونهم" في قوله تعالى ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾[2] تعجباً منهم، واستهزاء من ظنهم بأن حصونهم تحفظهم من أمر الله.

٧-تقديم لإظهار إرادة الله على إرادة الآخرين:

من ذلك تقديم "إناثاً" على "الذكور" في قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ﴾ لأن الحديث في الآية عن مشيئة الله وأنه يفعل ما يريده هو لا ما يريده هذا أو ذاك إذ هو الخالق والمدبر والعليم بأمور الدنيا والآخرة بما في السموات والأرض وعلى هذا فـ"سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه هو لا ما يشاؤه غيره فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم"[3].

٨-الإجمال ثم التوضيح:

هذا الأسلوب طريقة من طرائق التوكيد، وكأنه إعادة للجملة مرتين تقديم المجمل يساوي جملة وتوضيحه يساوي جملة أخرى تبين الأولى وتفسرها، ويمكن أن يلاحظ هذا في أبواب عدة من النحو العربي كالتمييز، والاستثناء والبدل، وعطف البيان ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾[4].

---

[1] الكشاف، ٥١١/٢.

[2] الحشر، ٢.

[3] الكشاف، ٤٧٥/٣.

[4] النساء، ١١.

فذكر سبحانه "الأبوين" ثم أبدل منهما، لما في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال من تأكيد وتشديد كالذي نراه في الجمع بين المفسر والتفسير[1] ومنه قوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2] لم يخبر أي شيء يعلمونه ولكنه وضحه بقوله ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] ومنه قوله ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[4] ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾[5] و﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[6] فكأن هذه الآيات الكريمة كل واحدة منها تقوم مقام آيتين "اشتعل الرأس" فيقال ماذا اشتعل؟ فيقال اشتعل شيباً، ومثل "وفجرنا الأرض" فيقال: بأي شيء فجرت؟ فيجاب: "فجرنا الأرض عيوناً" وكذلك "أنا أكثر منك" فيسأل: بأي شيء أكثر؟ فيقال: "أنا أكثر منك مالاً" ومنه قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[7] فجاء سبحانه بالمجرور "لك، وعنك، ولك، تعميماً وإجمالاً ثم بين ذلك المجمل بـ"صدرك، ووزرك، وذكرك، لما

---

[1] الكشاف، ١/٥٠٧.

[2] الأعراف، ١٢٣.

[3] الأعراف، ١٢٤.

[4] مريم، ٤.

[5] القمر، ١٢.

[6] الكهف، ٣٤.

[7] الشرح، ١، ٢، ٣.

في طريقة الإجمال ثم التوضيح من توكيد وتثبيت في الذهن عن طريق التكرار والتشوق لمعرفة المبهم"[1].

٩-تقديم من أجل الحصر والاختصاص:

يتجلى الاختصاص أو الحصر في تقديم المفعول به كما رأينا في "إياك نعبد وإياك نستعين" في بداية البحث وفي تقديم الجار والمجرور كقوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2] وقوله ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[3].

وقوله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4] وقوله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾[5] وقوله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6] ومثله في القرآن كثير، فتقديم "مما رزقناهم" على "ينفقون" يدل على اختصاص الإنفاق من الشيء الحلال الذي رزقهم الله إياه لا من غيره، وتقديم "وبالآخرة" على "يوقنون" يفيد تخصيص إيقانهم بالآخرة أي إيقانهم على حقيقة الآخرة لا يتعداها إلا خلاف حقيقتها"[7] والتقديم في "وعلى ربهم يتوكلون" يفيد انهم قصروا

---

[1] الكشاف، ٤/٢٦٧.

[2] البقرة، ٣.

[3] البقرة، ٤.

[4] الأنفال، ٢.

[5] هود، ٦.

[6] التغابن، ٢.

[7] حاشية الكشاف، ٢/١٤٢.

توكلهم على الله فقط، ولو قال "يتوكلون على ربهم" لجاز أنهم يتوكلون عليه وعلى غيره، وكذلك تقديم المجرور في ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾[1] يشير إلى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل، لأن الملك على الحقيقة له إذ هو مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، ولأن أصول النعم وفروعها منه لا من غيره[2].

١٠-التدرج:

يدخل ضمن هذا الموطن كثير من الآيات فيها تدرج من الأظهر إلى الأخفى أو العكس، ومن الكثير إلى القليل أو العكس، أو من الصغير إلى الكبير أو عكسه، أو من القديم إلى الحديث، أو بحسب قوة حب الشيء عند الإنسان أو رغبته فيه، مجانسة لظروف الآيات السابقة واللاحقة للتدرج أو لغيره مما تتطلبه بلاغة القول وقدرة الخالق ومنه:-

أ-التدرج من الأظهر إلى الأخفى كقوله ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[3]:

المقصود: ما أعلنتم منه وما أسررتم وقيل ما علمتم وما نويتم وقيل ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر[4] لأن الله سبحانه وتعالى يتدرج في تربيتهم يدعوهم لترك

---

[1] التغابن، ٧٩.

[2] الكشاف، ١١٢/٤.

[3] الأنعام، ١٢٠.

[4] الكشاف، ٤٧/٢.

الظاهر إذ هو أدعى للإنكار ولما يقوى إيمانهم ويشتد يكونون أقدر على ترك الباطن منه أي من الإثم.

ب-التدرج من المهم إلى الأقل أهمية: كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[1] وقوله ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2] ففي الآية الأولى قدم الذهب على الفضة لنفاسته وليناسب قوة هواه في نفوس الكثير من الأحبار والرهبان... والآية الثانية رتبها سبحانه بحسب أهميتها: خيل- بغال- حمير، لتناسب تقديم "الجمال" على "حمل الأثقال" في قوله ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] لأن الجمال في الخيل، وحمل الأثقال على البغال والحمير، وفي الآية تقديم آخر من تقديم خلق المعلوم "الخيل والبغال والحمير"، على المجهول غير المعلوم "ويخلق ما لا تعلمون" من تقديم الأظهر على الأخفى.

جـ-التدرج بحسب هوى النفس: كقوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾[4] رتبت هذه الأشياء بحسب ميل

---

[1] التوبة، ٣٤.

[2] النحل، ٨.

[3] النحل، ٧.

[4] آل عمران، ١٤.

الإنسان إليها وأثرها في النفس على الأعم الأغلب مع وجود تفاوت في الميل بين إنسان وآخر.

د- **التدرج بحسب فقدان الصفة:** كتقديم "الموتى" على "الصم" لأنهما اشتركا في فقدان السمع لكن الموتى أشد في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾[1]. ليناسب تقديم الأخفى على الأظهر في آيات سابقة كتقديم ما تكن الصدور على ما يعلنونه وتقديم ما خفي في السموات -وهو الأخفى والأشد- على مثيله في الأرض في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2].

هـ-**التدرج من الداخل إلى الخارج:** ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3] فقدم القلوب وأكنتها ثم الآذان ووقرها ثم عبر عن البعد بينهما بوجود حجاب، وذكر "من" ليدل على عرض الحجاب وإنه يمتد منهم إليه ولو حذفها لكان الحجاب غير عريض واقعاً في وسط المسافة بينهم، كل ذلك ليدل على شدة إيغالهم في الكفر وإعراضهم عنه كما وصفهم سبحانه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4].

---

[1] النمل، ٨٠.

[2] النمل، ٧٥.

[3] فصلت، ٥.

[4] فصلت، ٤.

و- **التدرج المكاني الذي يقع فيه الفعل:** كقوله ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1] فإن الغالب أن الذين يأتون رجالاً من مكان قريب والذين يأتون على الضامر من البعيد، ويحتمل أن يكون من التقديم بالشرف، لأن الأجر في المشي مضاعف[2] ولكنه سبحانه قدم في الحرب الفرسان على المشاة لأهمية الفارس في القتال فقال ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[3] ومنه قوله ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[4] فتوالت "الجباه والجنوب والظهور" في هذه الآية لأسباب ثلاثة هي: أنهم ينفقون ما ينفقون رياءً لحفظ ماء وجوههم، ولأنهم يسمنون مما يأكلون، ويلبسون الفاخر على ظهورهم، أو لأنهم يشيحون بجباههم عن الفقير، ويميلون جنوبهم وإذا ألح بطلبه يديرون ظهورهم إليه أو لأنهم يعذبون على مقاديمهم وجنباتهم ومآخيرهم، قال الزمخشري: "لأنهم لم يطلبوا بأموالهم.. إلا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم يتلقون بالتبجيل ويحيون بالإكرام.. ومن أكل الطيبات يتضلعون.. وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم.. وقيل لأنهم إذا

---

[1] الحج، ٢٧.

[2] البرهان، الزركشي، ٢٤٩/٣.

[3] التوبة، ٤١.

[4] التوبة، ٣٥.

أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل معناه: يكوون على الجهات الأربع...[1]

ز- **التدرج الزماني:** جاءت آيات رتب فيها الأنبياء بحسب الترتيب الزمني فتصدر الأقدم ثم تلاه ما بعده وهكذا ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾[2] وقوله ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾[3] والعادة في النوم أن يسبق بنعاس وهو "السنة" ولهذا قدمها سبحانه في قوله ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾[4] إشارة على يقظته لا ينعس ولا ينام.

ح- **التدرج بحسب آلة الفعل:** كقوله تعالى ﴿كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾[5] فقدم سبحانه ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم على الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع[6].

---

[1] الكشاف، ١٨٨/٢.

[2] آل عمران، ٣٣.

[3] الأحزاب، ٧.

[4] البقرة، ٢٥٥.

[5] النور، ٤٥.

[6] الكشاف، ٧١/٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١-الإعجاز الطبي في القرآن، د.السيد الجميلي، الهلال، بيروت.

٢-الإعجاز العلمي في الإسلامي (القرآن الكريم)، محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية.

٣-الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، محمد السيد أرناؤوط.

٤-البرهان في علوم القرآن، الزركشي، القاهرة.

٥-التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، بغداد، ١٩٨٧م.

٦-التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، مصر.

٧-حاشية الكشاف، أحمد ابن المنير، دار الفكر.

٨-الكتاب سيبويه، تحـ: عبد السلام محمد هارون.

٩-الكشاف، الزمخشري.

١٠- معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

١١- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي جلال الدين، تحـ: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي.

١٢- المنجد، دار الشروق، بيروت، ط٤٦.

المبحث الرابع

دلالة العلامة الإعرابية
في القرآن الكريم

دلالة العلامة الإعرابية في القرآن الكريم

الإعراب –عند النحاة– أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل[1] فالظاهر نحو: لم يكتب زيدٌ، ورأيت زيداً، ومررت بزيدٍ، والمقدر نحو: حضر الفتى، وساعدت الفتى، ومررت بالفتى، والعلامات الإعرابية الأصلية هي "الفتحة، والضمة، والكسرة، والسكون. وتوجد علامات فرعية تنوب عنها، وهي معروفة معدودة في كتب النحاة.

والعلامة الإعرابية إحدى القرائن التي تدل على المعنى وعلى وظيفة الكلمة في الجملة نحو "درّس زيدٌ علياً".

وقد تحول المعنى إلى الضد، فالضمة جعلت الخليفة يأمر بقطع عنق الشاعر، والفتحة أنقذته وأمرت له بجائزة، فيُروى أن الشاعر: "شبيب بن يزيد الخارجي أنشد البيت:

ومنا سُويدٌ والبطينُ وقعنبُ ومنا أميرُ المؤمنينَ يزيدُ

برفع كلمة "أمير" خبراً لـ"يزيد" أي: يزيد هو الخليفة، وعلى هذا فالشاعر لايعترف بخلافة الأمويين، ولما سأله عبد الملك بن مروان عنه قال: نعم أنا قائله، ولكنني لم أقله بالرفع، وإنما قلته بنصب كلمة "أمير" وبها يصبح "أمير..." منادي ويكون المعنى منا سويد، والبطين وقعنب، ويزيد ياأمير المؤمين، وبهذا

---

[1] قطر الندى، ابن هشام، ص٤٥.

المعنى فالشاعر يعترف بخلافة عبد الملك وإمارته، ويفتخر بقومه فلان وفلان...، لهذا عفا عنه الخليفة ووصله[1].

وللعلامة الإعرابية في القرآن الكريم دلالات متنوعة وكثيرة سأشير إلى ما يوفقني الله إليها:-

١- تعيين وظيفة الكلمة في الجملة أ فاعلاً أم مفعولاً أم غير ذلك؟ ومنه قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[2]..

الله هو المُكلِّم وهو الفاعل، وموسى هو المُكلَّم -بفتح اللام- وهو المفعول به، وقرأ إبراهيم، ويحي بن وثاب "وكلم الله، بالنصب[3] فيكون موسى هو الفاعل وهو المتحدث، ولفظ الجلالة هو المفعول به وهو المتحدث له... ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء...﴾[4].

بنصب لفظ "الله" ورفع لفظ "العلماء" فيكون المعنى: العلماء يخشون الله لمعرفتهم بطلاقة قدرته... وفي قراءة: عمر بن عبد العزيز، وأبي حنيفة رفع الله ونصب العلماء على تأويل: "إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس من جميع عباده"[5].

---

[1] عيون الأخبار، ابن قتيبة، ١٥٥/٢، ظاهرة الإعراب، عبد الكريم الرعيض، ص١٣١.

[2] من الآية ١٦٤ من سورة النساء.

[3] الكشاف، الزمخشري، ٥٨٢/١.

[4] من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

[5] الكشاف، ٣٠٨/٢.

٢-الدلالة الزمنية:

قرائن الزمن في اللغة العربية كثيرة منها شكل الفعل، ونوع الأداة، وبعض الألفاظ الخاصة به... وقد تكون العلامة الإعرابية دليلاً عليه تقول مثلاً "إذن تنجحُ" برفع الفعل إذا كان نجاحه في الحال وتقول "إذن تنجحَ" بالنصب إذا كان النجاح في المستقبل، وتقول: سرت حتى أدخلُ المدينة، بالرفع إذا قلتها وأنت في حالة دخول، وتقولها بالنصب إذا كان دخولك في المستقبل، وأنك لمّا تصل إلى المدينة، وقد أشار النحاة إلى شيء من هذا[١].

حتى ذهب بعضهم إلى أن المتكلم ينصب الفعل إذا أراد أن يخصصه بالمستقبل، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾[٢]، بالرفع والنصب، وعلى الرفع يكون القول في الحال، وعلى النصب يستمر الزلزال إلى المستقبل إلى أن يقول الرسول، ويكون الزلزال مع النصب أطول منه في الرفع...، ومثله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[٣] فيكون " يُسْلِمُونَ" في حالة رفعه معطوفاً على " تُقَاتِلُونَهُمْ" أي لابد من أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام ولا ثالث لهما، أي: أن القتال لا يقع إن أعلنوا إسلامهم وفي قراءة أُبي "أو يسلموا"[٤] أي يقع

---

[١] شرح ابن عقيل، ٣/١٠-١١.

[٢] من الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

[٣] من الآية ١٦ من سورة الفتح.

[٤] الكشاف، ٣/٥٦٤.

القتال ويستمر إلى أن يسلموا، وعلى هذا فجميع الأفعال المنصوبة في القرآن الكريم وفي غيره يراد بها المستقبل... ومن ذلك المناظرة الشهيرة بين "الفقيه أبي يوسف والكسائي" أبو يوسف حاول أن يقلل من شأن النحو، فقال له الكسائي: إذا جاءك رجل، وقال لك: عمرو قاتلٌ زيداً، بتنوين -قاتل- ونصب -زيداً- وقيل لك عمرو قاتلُ زيدٍ، وبعدم تنوين -قاتلُ- وإضافته إلى "زيد" فعلى أي منهما تحكم؟ فسكت الفقيه، وبدأ الكسائي يشرح له، فقال "مع التنوين يكون "عمرو" بريئاً، لأنه لم يقتل بعد ومع الإضافة يكون مجرماً لأن القتل قد وقع منه، لأن اسم الفاعل المنون يدل على الاستقبال، وغير المنون يدل على المضي[1].

ويبدو أن النحاة أخذوا هذه الدلالة الزمنية في اسم الفاعل من تنوينه مع كلمتي "غدا، ويشاء" في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ...﴾ [2].

٣-الدلالة على الثبوت أو التجدد:

الاسم لفظ مجرد من الزمن والفعل لفظ مقرون بزمن أي: حدث وزمن، وما فيه زمن يتجدد، لأن الزمن متجدد، وما يخلو من الزمن لايتجدد، لذلك قال النحاة: الجملة الأسمية تدل على الثبوت والفعلية تدل على الاستمرار والتجدد، وصفة الاسمية ثابتة، والفعلية متجددة وما فيه صفة ثابتة أقوى مما فيه صفة

---

[1] معجم الأدباء، ١٣/١٧٧، وتأويل مشكل القرآن، ص١٤.

[2] الآيتان ٢٣-٢٤ من سورة الكهف.

متجددة و"زيد فقيه" معناها أصبح فقيهاً، و"زيد يتفقه" لم يكتمل الفقه عنده ومازال يتعلمه، ومثله "هذا متعلم" أي اكتمل تعليمه، و"هذا يتعلم"، أي لم يكتمل، ومازال يعالج العلم ويدرسه....".

و"زيد" معدود في جملة الفقهاء في قولنا "له علمَ علمُ الفقهاء"، برفع علم الثانية، وهو يتعلم الفقه في نصب تلك اللفظة نحو "له علم علمَ الفقهاء"، لأن النحاة يقدرون فعلاً ناصباً لـ"علم" الثانية، والفعل يدل على التجدد، وعلى ذلك قالوا إنّ: "كرَمَ زيدٍ" يتجدد في النعت المقطوع إلى النصب نحو "مررت بزيدٍ الكريم" لأنهم يقدرون فعلاً نحو "أعني" وأن كرمه ثابت إذا قطع إلى الرفع نحو "مررت بزيد الكريم" لأنهم يقدرون اسماً مبتدأ أي: "هو الكريم" فيكون جملة اسمية والاسمية ثابتة والفعلية متجددة، والاسمية أقوى من الفعلية، ومع النصب يتجدد الكرم أي أن الكرم يحصل من محدثه غالباً لا دائماً، ومع الرفع يكون الكرم صفة مغروسة فيه وسجية من سجاياه وطبيعة من طبائعه فهو يكرم دائماً والفرق واضح بين "غالباً ودائماً"، "غالباً" في النصب، و"دائماً" في الرفع[1].

ومن ذلك قوله "الحمدُ لله"، فالحمد في قراءة الرفع ثابت له دائماً، وهي أقوى من قراءة النصب "الحمد لله"[2]، لما بيناه.

---

[1] تحدث الدكتور فاضل السامرائي بتفضيل عن معاني النحو، في جميع كتبه لاسيما كتاب "معاني النحو" بأجزائه الأربعة.

[2] تميم هي التي تنصب المصادر.

ومنه أن قراءة الرفع في ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ..﴾ [1] أقوى من قراءة "أُبي" بالنصب، فصبراً جميلاً[2] لأنها في الرفع جملة اسمية، والتقدير "صبري صبر جميل" وفي النصب جملة فعلية، وفي الاسمية يكون الصبر ثابتاً ومستقراً وفي الفعلية يكون الصبر متجدداً، وجاء القرآن الكريم بالرفع تعبيراً عن حزن يعقوب العميق، وصبره الطويل..

ومن ذلك نصب "سلام" ورفعه في القراءة المشهورة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ...﴾ [3].

وقوله سبحانه ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾[4]. مع النصب يقدر النحاة فعلاً، فتتشكل جملة فعلية تدل على التجدد، ومع الرفع يقدرون اسماً فتصير جملة اسمية دالة على الثبوت فيكون رد التحية أقوى من إلقائها، وأحسن، وهذا ماأمرنا الله به في قوله ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[5]، قال الزمخشري: "سلاماً مصدر ساد مسد الفعل مستغن به عنه، أصله نسلم عليكم سلاماً، أما "سلام" فمعدول به إلى الرفع على الابتداء،

---

[1] من الآية ١٨ من سورة يوسف.

[2] الكشاف، ٣٠٨/٢.

[3] من الآية ٦٩ من سورة هود.

[4] الآيتان ٢٤-٢٥ من سورة الذاريات.

[5] من الآية ٨٦ من سورة النساء.

وخبره محذوف معناه: عليكم سلام لدلالة على ثبات السلام كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأدب الله، وهذا أيضاً من إكرامه لهم"[1] ... ومثل ذلك يقال في قوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[2]، قرئ بنصب حمالة ورفعها، والنصب على تقدير "أشتم، أو أذم" والرفع على تقدير "وهي حمالة الحطب" والرفع أقوى من النصب لكن الزمخشري فضل النصب على الرفع وقال: "وقرئ حمالة الحطب بالنصب على الشتم، وأنا أستحب هذه القراءة"[3].

ويبدو أن النصب هو المشهور لا لتقدير فعل الشتم -كما قال الزمخشري- ولكنه لكون "أم جميل" لم تنثر الأشواك والحطب دائماً في طريق الرسول عليه الصلاة والسلام وإنما نثرته مرات متجددة، ولم يكن هذا هو ديدنها باستمرار، ولو قرئ بالرفع لكان ذلك العمل سجية من سجاياها وطبيعة من طبائعها كأنه خلقة مغروسة فيها، لا شغل لها غير جمع الشوك ووضعه في طريق الرسول، وهذا المعنى غير مراد، لأنها لم تفعله دائماً.

---

[1] الكشاف، ٤/١٧.

[2] المسد، الآية ٤.

[3] الكشاف، ٤/٢٩٧.

٤-الدلالة على مذهب فقهي:

القراءة المشهورة هي نصب "كلّ" في قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١]، فتكون "كل" مفعولاً به للفعل "خلق" على رأي الكوفيين أو لفعل مقدر مثله على رأي البصريين، وجملة خلقناه خبر لـ"إن" والضمير "نا" اسمها... ولكن الصوفية تمسكوا بقراءة ضعيفة لأبي السمال[٢]، فيها رفعت كلمة "كل" وأعربوا: "إنا" حرف مشبه بالفعل واسمه، وكل: خبره، وإذن فالآية هي: "إنّا كلُ شيء" بمعنى: نحن كل شيء، وبذلك يثبتون مايقولون به من الاتحاد أو التوحيد الجوهري بين الله والعالم، فهو سبحانه عين الأشياء[٣].

٥-الدلالة على الحالة النفسية عند الكافر والمؤمن:

قد يدل الكلام على سريرة المتكلم من خلال جوابه، ألفاظه، معانيه، نبرة صوته، أو من خلال ما يرتسم على بشرته في أثناء حديثه، وهذا معروف يستطيع معرفته المتفرس وغيره، ولكن العلامة الإعرابية قد تكون دليلاً على نفسية الكافر والمؤمن وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[٤]. ترددوا في الجواب،

---

[١] القمر، ٤٩.

[٢] المحتسب، ١٤٨/٢.

[٣] شرح نصوص الحكم، عبد الغني النابلسي، ٥٢/٢، وظاهرة الإعراب في النحو العربي، ص٢٠٣.

[٤] الآية ٢٤ من سورة النحل.

ولم يقروا بأنه منزل، ولم يعترفوا بالفعل "أنزل" المتعدي، ولم يبق في بالهم، فجاء جوابهم برفع "أساطير" على غير نسق السؤال وسمته، أي ما يقوله غير منزل، وهو أساطير الأولين، وهو على عكس جواب المتقين في السورة نفسها، الذين يعترفون بالإنزال، ويصدقون بالفعل "أنزل" الذين لم يترددوا، ولم يتأخروا في الجواب، فنصبوا مااعتقدوه في أنفسهم، لأن الفعل "أنزل" مازال يرن في أسماعهم وآذانهم في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾[1].

قال الزمخشري: "فإن قلت" لم نصب "خيراً" و"رفع" أساطير؟ قلت: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيّناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا خيراً، أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: "هي أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء"[2].

٦-الدلالة على النفي أو الإثبات:

النفي له أدوات معينة إذا دخلت على الكلام فهو منفي وإذا لم تدخل عليه، ولم توجد فيه فهو مثبت موجب، وقد يعرف المنفي من المثبت من خلال ما تعطيه العلامة الإعرابية من معنى في مواضع بعينها لها تركيب خاص يكون النصب فيها دالاً على

---

[1] من الآية ٣٠ من سورة النحل.

[2] الكشاف، ٤٠٧/٢.

النفي ويكون الرفع دالاً على الإثبات، ويتضح ذلك في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[1].

قال الزمخشري: فإن قلت: فما له رفع -فتصبح- ولم ينصب جواباً للاستفهام؟ قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم ترَ أني أنعمت عليك فتشكر؟ إن نصبت فأنت نافٍ لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر[2].

٧-الدلالة على حكم شرعي:

الحكم الشرعي يؤخذ من أمور شتى من دلالة الألفاظ المعجمية، وتركيبها تقديمها وتأخيرها، ذكرها وحذفها أو مما تدل عليه العلامة الإعرابية لارتباطها بالمعنى، ومنه ماذكر أن الرشيد الخليفة العباسي (ت١٩٣هـ) سأل القاضي أبا يوسف ذات ليلة عن حكم الطلاق في نصب (ثلاثاً) أو رفعها في قول الشاعر:

فإن ترفُقي يا هندُ فالرفقُ أيمنُ وإنْ تَخرِقي يا هندُ فالخرق أشأمُ

فأنتِ طلاقٌ والطلاقُ عزيمةٌ ثلاثاً ومَنْ يخرُقْ أعقُ وأظلمُ

---

[1] من الآية ٦٣ من سورة الحج.

[2] الكشاف، ٣/٢١.

فخاف أبو يوسف أن يقع في خطأ لأنها مسألة نحوية فقهية فأخذ المسألة، وذهب بها إلى الكسائي، فأجابه بأن الطلاق لا يقع في الرفع، لأنه طلقة واحدة، إذ يقول لها أنت طلاق هذه طلقة واحدة ثم يخبرها بأن الطلاق ثلاث طلقات، وفي النصب يحصل الطلاق لأنه يقول لها منذ البداية أنت طلاق ثلاثاً أي عدد الطلقات فيه ثلاثاً وبه يحدث الطلاق.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ...﴾ [1]. القراءة الشائعة بنصب العمرة فتكون الواو عاطفة، ويكون المطلوب إتمام الحج والعمرة، أي وجوب الحج والعمرة على المستطيع وقرأ الإمام علي (عليه السلام) وعبد الله بن مسعود والشعبي (رض) "والعمرة لله" بالرفع كأنهم قصدوا بذلك إلى إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب[2].

ومنه أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ...﴾ [3].

فمن نصب أرجل عطفها على أيدي وأوجب الغسل، ومن جرها عطفها على الرؤوس ومسحها... ومن رأى أن الواو للترتيب أوجب الترتيب في الغسل والمسح على المذهب الشافعي، ومن لم يوجب الترتيب فيها لم يوجب الترتيب في غسل أعضاء

---

[1] من الآية ١٩٦ من سورة البقرة.

[2] الكشاف، ٣٤٤/١.

[3] من الآية ٦ من سورة المائدة.

الوضوء كالحنفية... ومن رأى أن الباء تفيد التبعيض يمسح جزءاً من الرأس كالشافعية ومن رآها للإلصاق أوجب مسح جميع الرأس كالمالكية..، ومن رأى أن "إلى" يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها أوجب غسل المرافق ومن رأى غير ذلك لم يوجب غسلها[1].

٨-لفت النظر إلى أهمية شأن أو قلّته:

أساليب لفت النظر في العربية كثيرة منها: تعابير الوجه، والصوت، وأدوات النداء، والاستفتاح، والتكرار، وحصر اللفظ بين قوسين أو شارحتين، أو المخالفة الإعرابية، ومن ذلك قوله: ﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

فإن كلمة "المُقيمين" جاءت منصوبة لسياقها، إشارة إلى أهمية المقيمين الذين هم الأنبياء، وعلو شأنهم مقايسة بالمذكورين قبلهم وبعدهم ومثله قوله تعالى ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ..﴾[3].

نصب "الصابرين" إشارة وتنبيه إلى علو قدرهم وخصوصية صفتهم "إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال"[4]، والنحاة نصبوا هذا اللفظ بفعل دال على

---

[1] ظاهرة الإعراب في النحو العربي، ص١٨٠-١٨٢.

[2] الآية ١٦٢ من سورة النساء.

[3] الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

[4] الكشاف، ١/١٣٣.

الخصوصية "أعني أو أخص" لكنهم لم يشيروا إلى هذه الأهمية، ولم يبينوا سبب المخالفة الإعرابية فيه... ومن ذلك "الصابئون" في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. تنبيهاً إلى أن "الصابئين" يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان، والعمل الصالح فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غياً"[2]. أي أن لفظة "الصابئون" جاءت مرفوعة في آية المائدة "٦٩" ولم تدخل ضمن توكيد "إنّ" لفتاً للنظر إلى قلة شأنهم بالنسبة للمذكورين وجاءت منصوبة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ في آية البقرة "٦٢" لتأخرها، والتأخير يدل على قلة الشأن، وجاءت منصوبة وهي متقدمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ...﴾ في آية الحج "٧" ودخلت ضمن التوكيد؛ لأن المقام ليس مقام جزاء وثواب كآيتي البقرة والمائدة، ويدل على منزلتهم بالمخالفة الإعرابية مرة، وبالتأخير مرة أخرى، وإنما هو مقام فصل وشهادة لقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

---

[1] الآية ٦٩ من سورة المائدة.

[2] الكشاف، ٦٣٢/١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١.تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحـ: السيد أحمد صقر، ط٢، ١٣٩٣هـ.

٢.شرح ابن عقيل، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢٠، القاهرة، ١٤٠٠هـ.

٣.شرح نصوص الحكم، عبد الغني النابلسي.

٤.ظاهرة الإعراب في العربية، عبد الكريم الرعيض، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط١، ١٩٨٨ف.

٥.ظاهرة الإعراب في النحو، د.أحمد سليمان ياقوت، ١٩٩٤ف، مصر.

٦.عيون الأخبار، ابن قتيبة، دار الكتب، ١٩٢٥ف.

٧.قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٨.الكشاف، الزمخشري، دار الفكر.

٩.المحتسب في توجيه شواذ القراءات، ابن جني، تحـ: علي النجدي وشلبي، القاهرة، ١٩٦٩ف.

١٠.معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، دار الحكمة، العراق، ١٩٩١ف.

١١.معجم الأدباء، ياقوت الحموي.

المبحث الخامس

مخالفة العدد للمعدود

في ضوء الزوجية

في القرآن الكريم

مخالفة العدد للمعدود في ضوء الزوجية في القرآن الكريم

العد لغةً:

الإحصاء، والعدد مقدار ما يُعد[١] وهو ما وضع لكمية آحاد الأشياء[٢] وقيل العدد: هو ما يساوي نصف مجموع حاشيتيه الكبرى والصغرى[٣] فالإثنان مثلاً يساوي نصف مجموع الواحد، والثلاثة، لأن مجموعهما أربعة ونصف الأربعة اثنان، والاثنان هو العدد المراد وحاشيتاه الصغرى الواحد والكبرى الثلاثة[٤].

والعدد على أقسام: المفرد، والمركب، والعقود، والمعطوف، فالمفرد من ١-١٠، والمئة والألف والمليون ومضاعفاتها، والمركب من ١١-١٩، والعقود هي عشرون ثلاثون إلى تسعين، والمعطوف كل الأعداد التي يقع بينها الواو العاطفة والأعداد "١، ٢، ١١، ١٢" تطابق المعدود.

نقول: رجل واحد، وامرأة واحدة، والأعداد من "٣-١٠" تخالف المعدود في التذكير والتأنيث، قال تعالى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾[٥] والأعداد من "١٣-١٩" الجزء الأول يخالف المعدود والثاني يطابقه تقول "جاء ثلاثة عشر ولداً، وجاءت ثلاث عشرة بنتاً".

---

[١] العين، ٨/٢، ولسان العرب، ٢٨٣٣/٤.

[٢] شرح الرضي على الكافية، ٢٨١/٣.

[٣] شرح التصريح على التوضيح، ٢٦٩.

[٤] شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ٤٠٠.

[٥] الحاقة، ١.

وألفاظ العقود من "٢٠-٩٠"، وكذلك المئة، والألف، والمليون تلازم حالة واحدة، تقول: حضر عشرون رجلاً، وحضرت عشرون امرأة، وسافر مئة رجل، وسافرة مئة امرأة وهكذا.. هذا هو خلاصة الشائع الذي قيل في العدد تعريفاً وأقساماً وتمييزاً.. وذكر النحاة عدة تعليلات لمخالفة العدد لمعدوده هي:-

١-إنّ الأصل في العدد أن يكون مؤنثاً، والأصل في المؤنث أن يكون بالهاء، والمذكر هو الأصل فأخذ الأصل الهاء، فبقي المؤنث بغيرها.

٢-إن المذكر أخف من المؤنث فلما كان المذكر أخف من المؤنث احتمل الزيادة والمؤنث لما كان أثقل لم يحتمل الزيادة.

٣-إن الهاء زيدت للمبالغة كما زيدت في "علامة، ونسابة" والمذكر أفضل من المؤنث فكان أولى بزيادتها.

٤-إنهم لما كانوا يجمعون ما كان على مثال "فعال" في المذكر بالهاء نحو "غراب وأغربة" ويجمعون ما كان على هذا المثال في المؤنث بغيرها نحو "عقاب وأعقب"، حملوا العدد على الجمع فأدخلوا الهاء في المذكر وأسقطوها في المؤنث وكذلك حكمها بعد التركيب في المذكر بغيرها، والمؤنث بالهاء لأنهم لما ركبوا الآحاد مع العشرة لئلا يصير بمنزلة الجمع بين تأنيثين في اسم واحد على لفظ واحد[1].

---

[1] الأنباري عبد الرحمن، أسرار العربية، ص٢١٨-٢١٩.

٥-إن العدد جمع والجمع تارة يحمل على اللفظ، وتارة على المعنى فجاء العدد مع المذكر على اللفظ، ومع المؤنث على المعنى فيكون مع المذكر على اللفظ، لأننا نقول في جموع التكسير: قامت الرجال، وقام الرجال، فجاء العدد مع المذكر على اللفظ ومع المؤنث على أصل وضعه[١].

٦-إن العدد هو المعدود في المعنى فتأنيث المضاف إليه يغني عن تاء التأنيث في المضاف لئلا يجمع بين علامتي تأنيث[٢].

هذا هو مجمل علل النحاة في مخالفة العدد للمعدود، ويبدو أنها غير مقنعة فيبقى في النفس شيء... وقد وجدنا تفسيره في الزوجية في القرآن الكريم... فالزوج في اللغة فرد له نظير أو نقيض[٣] ومن زوج وزوج يكون الزوجان وبداية خلق الإنسان هو زوج هو نفس واحدة أو قل هو آدم (عليه السلام) وهو الأصل وهو الذكر، وخلق حواء وهي الفرع وهي الأنثى من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها، ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه[٤] قال تعالى في سورة الأعراف ﴿هُوَ الَّذِي

---

[١] شرح الرضي، ٣/٣٠٠.

[٢] الكتاب، ١/٢٠٧.

[٣] المصباح المنير، ص٩٨.

[٤] الكشاف، ٢/١٣٦.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1] وحدد القرآن الكريم عدد الزوجين بأنهما اثنان، والاثنان يشملان البداية الأولى والثانية للعدد "الواحد والإثنين" قال تعالى في سورة هود ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[2] فذكر لنا سبحانه أن الزوجين المقصود بهما الاثنان هما "ذكر وأنثى" أكرر هذه الجملة مرة ثانية "أن المقصود بالاثنين الذكر والأنثى" أكررها لتكون أكثر توكيداً ورسوخاً في الذاكرة جاء ذلك في سورة النجم بقوله سبحانه ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾[3] وإذا قرأنا قوله تعالى في سورة يس ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] نعلم أن الزوجية ذكر وأنثى وفي الحيوان كذلك لقوله "ومن أنفسهم، وفي أمور لا نعلمها"، وقد كشف العلم عن بعض منها، الكهرباء مثلاً، "سالب وموجب" والذرة تتكون من "بروتون وإلكترون" وما زالت أمور كثيرة في علم الغيب ستكشف الأيام عن قسم منها... ومن الآيات السابقة تعلمنا أن أصل خلقة الإنسان نفس واحدة هو الذكر وهو الأصل ثم خلق الله حواء الأنثى الفرع من تلك النفس فصارا زوجين، وتعلمنا أن الزوجين ذكر وأنثى، وإن عددهما اثنان، وأن مبدأ الزوجية هو ثابت في الحيوان والنبات والجماد الذي يتكون من

---

[1] الأعراف، ١٨٩.

[2] هود، ٤٠.

[3] النجم، ٤٥.

[4] ياسين، ٣٦.

ذرات هي "الكترون وبروتون"، ومما لا يوصف من نبات ولا حيوان ولا جماد كالكهرباء "موجب وسالب".

إذن الذكر يتطلب أنثى، والأنثى لابد لها من ذكر، والكهرباء لا يكون ولا يعطي قوة إلا إذا كان موجباً وسالباً، والمخلوقات كلها لا تكون أصلاً ولا توجد إن لم تكن من ذرات متكونة من "بروتون وإلكترون"...

فمبدأ الكون كله قائم على الزوجية "الذكر والأنثى" في الحيوان والنبات والشيء وعكسه كما في الكهرباء، والبروتون والإلكترون كما في الذرة، والزوجان عدد رقمه اثنان والزوج عدد رقمه واحد، والنحاة أنفسهم قالوا "إن الواحد أصل العدد، وليس من العدد، لأن العدد جماعة متركبة من الآحاد، وهو مأخوذ من عددت، والواحد لا يعد"[1].

وعلى هذا فإن أصل العدد الذي هو "واحد وواحدة" قائم على الذكورة والأنوثة والذي يساوي اثنين، وإذن فالأعداد التي تأتي بعد الأصل وهي ثلاثة فما فوقها تكون قائمة على المبدأ نفسه من الكون العام في الذكورة والأنوثة وهكذا يكون ما بعدها إلى العشرة..

وعليه فإن مبدأ الزوجية "الذكورة والأنوثة" ينطبق على الأعداد، فالأعداد المذكرة تحتاج إلى تمييز مؤنث، والأعداد المؤنثة تحتاج إلى تمييز مذكر تمشياً مع قاعدة الكون العامة،

---

[1] المقتضب، ١٥٥/٢، والأصول في النحو، ٤٢٤/٢، والمخصص، ٩٧/١٧.

ودعاء وتفاؤلاً بأن يكون للذكور زوجات وأن يكون للإناث أزواج، ولذلك تراهم سموا بـ"فاطمة" تفاؤلاً بأن تكبر هذه البنت وتتزوج وتلد، ويعيش أطفالها فتفطمهم...

وإليك تفصيل ذلك... الأعداد من ٣-١٠ تخالف المعدود... العدد ثلاث مذكر والذكورة تحتاج إلى أنوثة، استناداً إلى مبدأ الزوجية في القرآن الكريم لذلك يميز بمؤنث: ثلاث طالبات، والعدد ثلاثة مؤنث يحتاج إلى مذكر ليتم تحديد نوعه فنقول ثلاثة طلاب.

وهكذا يتم الوجود بالزوجية وتتم الأعداد بالزوجية أيضاً عدد مذكر بجنبه تمييز مؤنث، وعدد مؤنث يميز بمذكر وهكذا من ٣-١٠.

وقد يقول قائل: إن رأيك قد يصح لو كان العدد "ثلاثة أولاد" مثلاً يدل على "ستة" -ثلاثة أولاد وثلاث بنات- ولكنه لا يدل على ذلك وإنما يدل على النصفي، والجواب هو أن ثلاثة أولاد، وكذلك "ثلاث بنات" تدل على نصف الستة، لأنها لم تقترن بعد بما يجانسها ولو اقترنت لكانت ستة فعلاً مثلها مثل "الكروموسومات" في الخلية الإنسانية، فإن عددها "٤٦" ولكنها في الخلية الذكرية "٢٣" وكذلك الخلية الأنثوية، لأنها ستتحد مستقبلاً مع جنسها الذكر أو الأنثى، فتُكوّن "٤٦" وكذلك هذه الأعداد تمثل نصف العدد الذي ستتحد به... والأعداد من ١٣-١٩ الجزء الأول يخالف استناداً إلى المبدأ العام في الزوجية، والجزء الثاني يطابق المعدود لتحقق

مبدأ الزوجية الكونية في الجزء الأول وعدم الحاجة إليها في الجزء الثاني استغناء بأوله استناداً إلى مبدأ الجوار في الثاني أي جوار التمييز، وإن المجاور قد يتأثر بما يجاوره في التأنيث والتذكير أو الإعراب كما قال النحاة أنفسهم... والأعداد من "٢٣-٢٩" ويقاس عليها في العقود الأخرى الجزء الأول يخالف تحقيقاً لمبدأ القاعدة الكونية في الزوجية والجزء الثاني يلازم حالة واحدة لأن المعطوف عليه الجزء الأول قد دل على جنس التميز أمذكر هو أم مؤنث؟

تقول: عندي ثلاثة وعشرون قلماً، الجزء الأول المعطوف عليه ثلاثة دل على مبدأ الزوجية فاستُغني به عن تأنيث المعطوف مع المذكر أو تذكيره مع المؤنث تخفيفاً للكلام...

العددان "١٠٠-١٠٠٠" يلازمان حالة واحدة اكتفاءً بتمييزها إذ لا نحذف تاء المئة، ولا نضيف "تاء" إلى الألف أمناً للبس لأن "المائة" عند حذف التاء منها تصبح "ماء" ولأن الألف مع التاء يصبح "أُلفة" وهي المودة والرحمة وهي لا تدل -طبعاً- على العدد.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١-أسرار العربية، لأبي البركات عبد الرحمن الأنباري، تحـ: محمد بهجة البيطار.

٢-الأصول في النحو لابن السراج، تحـ: د.عبد الرحمن الحسين الفتلي.

٣-شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام الأنصاري.

٤-شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري.

٥-شرح الرضى على الكافية، تحـ: يوسف حسن عمر.

٦-الكتاب، لسيبويه، تحـ: عبد السلام هارون، ط١.

٧-كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحـ: د.مهدي المخزوجي، د.إبراهيم السامرائي.

٨-الكشاف، الزمخشري، دار الفكر.

٩-لسان العرب، لابن منظور، تحـ: عبد الله علي الكبير وآخرين.

١٠- المخصص، لابن سيده.

١١- المقتضب، للمبرد، تحـ: عبد الخالق عضيمة.

المبحث السادس

"ثم"

في القرآن الكريم

ثم في القرآن الكريم

"ثُم" بضم الثاء حرف عطف، ويقال فيها "فُم"[1] أيضاً، وذلك لتقارب الثاء والفاء في مخرجيهما في النطق، إذ إن الثاء صوت أسناني، والفاء صوت شفوي أسناني[2]، وقد وردت في القرآن الكريم "٣٣٠" مرة[3] لم تستخدم إلا في عطف الجمل و"ثم" حرف غير عامل عند جمهور النحاة، وعامل لنصب المضارع عند الكسائي والجرمي، وابن اجرم، وعبد المتعال الصعيدي من المحدثين[4].

وهي –عند النحاة والمفسرين– قسمان:

أ–زمانية تدل على التراخي في الأوقات.

ب–غير زمانية تدل على تفاوت في المراتب لا في الأوقات.

أولاً– "ثم" الزمانية:

تنقسم "ثم" الزمانية ثلاثة أقسام –عند النحاة–:

١–عاطفة زمانية تفيد الترتيب مثل: جاء زيد ثم علي.

٢–عاطفة زمانية لا تفيد الترتيب والمهلة.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٥٠٨/١، ط٣، دار المعارف، القاهرة.

(٢) علم الأصوات اللغوية، د.مناف مهدي الموسوي، ص٨٩.

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د.محي عبد الخالق عضيمة، ١٢/١.

(٤) شرح الأشموني ٣٠٠/٢، والنحو العربي مذاهبه وتيسيره، د.عائد كريم، ص٢٢٠.

٣-زائدة لا تدل على عطف عند -الأخفش والكوفيين، وتكون حشواً يمكن الاستغناء عنه[١].

و"ثم الزمانية" هي التي تدل على أن ما بعدها لا يحدث مع ما قبلها مباشرة، وإنما يحدث بعد مدة زمنية غير محدودة قد تطول وقد تقصر.

وهي تساوي "السين" في المدة الزمنية المستقبلية لأنهما جاءا متقابلين في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] وقوله ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣] وحروف العطف كلها تفيد الربط والاختصار علاوة على خصوصية كل حرف في الجمع أو التعقيب أو التراخي أو غير ذلك وقد وظّف القرآن الكريم ذلك أحسن توظيف واستخدامه أفضل استخدام فتعاقبت "الفاء" و"ثم" في آيتين كريمتين ﴿فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٤] و﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٥] ليدل سبحانه بالفاء على الواجب، والمعنى سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير

---

[١] مغني اللبيب، ١/١٣٥.

[٢] التوبة، ٩٤.

[٣] التوبة، ١٠٥.

[٤] آل عمران، ١٣٧.

[٥] الأنعام، ١١.

الغافلين، وليدل بـ"ثم" على المستحب والمباح ومعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين[1] واستخدم "ثم" في دلالتها على التراخي لتعطف البعيد على ما قبله ليدخل قريب الحدوث ومتوسطه في الحكم أيضاً قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[2] فاستخدم ثم ولم يستخدم واو الجمع أو فاء التعقيب لتدخل قديمة العهد بالزواج وقريبة العهد به أو متوسطته، قال الزمخشري: "فإن قلت ما فائدة -ثم- في قوله -ثم طلقتموهن- قلت: فائدته نفي التوهم عمن عسى أن يتوهم تفاوت الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد في النكاح وبين أن يبعد عهدها بالنكاح وتتراخى بها المدة في حبالة الزوج ثم يطلقها[3].

وهذا هو سر إعجاز القرآن في استخدام الحروف وغيرها فذكر حرف التراخي "ثم" اختصاراً وإيجازاً وإيماءً إلى ما قرب حدوثه أو ما توسطت مدة الحدوث فيه.. ومرة يذكر القليل، ليقول هذا القليل منه فكيف كثيره؟ أو يذكر العرُض من الأبعاد، ليشير إلى أنه يساوي كذا وكذا من الأمور التي لا تحصى فكيف مقدار طوله إذن؟ من ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

---

[1] الزمخشري الكشاف، ٢/٧.

[2] الأحزاب، ٤٩.

[3] الكشاف، ٣/٢٦٧.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] ومنه قوله تعالى ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾[2] فذكر العرض ولم يذكر الطول "والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، وخص العرض، لأنه في العادة أدنى من الطول، للمبالغة"[3].

وأما "ثم" الزائدة –عند الكوفيين والأخفش في قوله تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[4] فهي غير زائدة قطعاً، وحرام أن يقال في القرآن شيء زائد ولكن الذي حمل هؤلاء على القول بذلك وقوعها في جواب الشرط وهو –هنا– ليس من موضوعات الربط بحرف عطف وبهذا تصح صفة الزيادة – بحسب مقاييسهم النحوية، وعندي أن اللفظ لا يُعدُّ زائداً، ولا يمكن إطلاق صفة الزيادة عليه إذا أدى غرضاً في الكلام و"ثم" في الآية غير زائدة كما قال الأخفش والكوفيون والجواب غير محذوف كما قال جمهور البصريين بل هي واجبة الذكر في هذا الموضع، ولا يمكن حذفها شأن الحرف الزائد، ولأنها أدت غرضاً معنوياً، وما أدته "ثم" في الآية الكريمة هو إفادة الترتيب والمهلة –التراخي– في وقوع

---

[1] لقمان، ٢٧.

[2] آل عمران، ١٣٣.

[3] الكشاف، ٤٦٣/١.

[4] التوبة، ١١٨.

الجواب، لأن "ثم" تفيد التشريك والترتيب والمهلة- عند الجمهور من النحاة- وتفيد الترتيب والمهلة عند من يقول بزيادتها ومن لا يقول بها، وهي حتى وإن لم تفد التشريك كما قال الأخفش والكوفيون فقد أفادت الغرضين الآخرين: الترتيب والمهلة - وبإجماع النحاة- ومن يطلع على أسباب نزول الآية يتضح له الأمر جلياً، وسببها هو أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) غزا غزوة "تبوك" وتخلف ثلاثة من المسلمين كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية[1] وندموا وضاقت عليهم الأرض وازدراهم الناس خمسين يوماً وأمرهم النبي أن يعتزلوا نساءهم ولا يقربوهن حتى دفع الأسف والندم أحدهم إلى أن يصعد إلى المسجد ويربط نفسه بساريته، وأقسم أنه لاينزل إلا إذا فك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وثاقه وهذا كله يتطلب تراخياً ومهلة في الجواب، لذلك اقترن الجواب بـ"ثم" لتدل على التراخي والمهلة، وعليه فإن "ثم" أدت غرضاً بلاغياً هو الإشارة إلى طول المدة، أي دليل على طول الزمن القائل الذي مر به هؤلاء الثلاثة من المسلمين وهذا هو إعجاز في التعبير القرآني يعطي لنا لفظة معبرة وموحية تومئ إلى شيء وتشير إلى حادثة، وتقع "الواو، والفاء" في جواب الشرط أيضاً ينبئان عن أمر، ويوضحان عن معنى، فالواو جاءت محذوفة مع -الكافرين- ومذكورة مع المتقين في آيتين من سورة الزمر في قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

---

[1] الكشاف، ٢/٨/٢.

جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[1] وقوله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[2] فالواو في آية المتقين غير زائدة وقد جاءت معبرة عن معنى هو أن فتح الأبواب قد حصل في وقت وصولهم ولم يتأخر أبداً احتراماً لهم وتعظيماً لشأنهم، ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب، وتقديره "وجدوا ربهم، أو ما يسرهم من نعيم... أما عدم ذكر الواو في آية الكافرين، فللإشارة إلى عدم تحديد زمن فتح الأبواب فيمكن أنه قد حصل عند وصولهم أو بعد وصولهم بمدة قليلة أو طويلة احتقاراً لهم وازدراء بحالهم. وكذلك الفاء في جواب الشرط في غير المواضع التي يجب أن يقترن بها -يعبر وجودها عن وقوع الجواب مباشرة بعد وقوع الشرط، وعدم وجودها يعبر عن إبهام زمن وقوعه، ومنه قوله تعالى في سورة الكهف ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾[3] وقوله ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾[4] وقوله ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾[5] فالفاء باتفاق النحاة تفيد التعقيب أي أن ما بعدها يعقب وقوع ما قبلها بغير مهلة لهذا جاءت في الفعل "فقتله" لتدل أن قتل الغلام

---

[1] الزمر، ٧١.

[2] الزمر، ٧٢.

[3] الكهف، ٧١.

[4] الكهف، ٧٤.

[5] الكهف، ٧٧.

وقع مباشرة عندما "لقيه" وأما خرق السفينة، واستطعام الطعام فترك الزمن فيه مبهماً أوقع بعد الركوب مباشرة أم بعده بمدة قصيرة أو طويلة؟ وكذلك سؤال الاستطعام جاء غير محدد الوقت غير معروف زمنه احصل بعد وصولهم القرية مباشرة أم بعده بزمن طال أم قصر؟! لأن الآية لم تشر إلى تحديد الزمن ولكنها أشارت إلى وقوعه بدلالة تعلق الشرط بالجواب، واستعمال أداة الشرط –إذا– الدالة على التوكيد والكثرة... واستناداً إلى الاستعمال القرآني نقرر –مطمئنين– القاعدة الآتية:–

أ– لا يدخل حرف من حروف العطف في جواب الشرط إذا لم يقصد تحديد زمنه.

ب– يؤتي بالواو، والفاء، وثم إذا أريد تحديد الزمن فيؤتي بالواو في جواب الشرط إذا أريد التعبير عن اقتران وقوع الشرط بالجواب أي أنهما وقعا في وقت واحد. ويقترن بالفاء –في غير المواضع التي يجب اقترانه بها– إذا أريد التعبير عن وقوع الجواب بعد الشرط مباشرة، ويقترن بـ"ثم" إذا أريد التعبير عن تأخر وقوع جواب الشرط.

جـ–إن هذه الأحرف الثلاثة "الواو، الفاء، ثم" غير زائدة لأنها أفادت فائدة زمنية –المصاحبة– أي مصاحبة الجواب للشرط، والتعقيب أي وقوع الجواب بعد الشرط مباشرة، والتراخي أو المهلة عند مجيء "ثم".

د- إن الأحرف الثلاثة لايصح وصفها بالزيادة لأنها أدت غرضاً زمنياً..

هـ-إن الجواب هو الفعل بعدها ولا يحتاج إلى تقدير جواب كما قال جمهور البصريين.

وأما "ثم" الزمانية التي تفيد العطف ولا تفيد الترتيب والمهلة- عند قوم من النحاة- تمسكاً بقوله في سورة الزمر ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1] وقوله ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[2] وقوله ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ﴾[3].

فهي باقية على وضعها في الترتيب والمهلة والعطف فـ"ثم" في الآية الأولى "خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها" المعنى بداية الخلقة نفس واحدة أو خلية واحدة، وبعد مدة -طالت أم قصرت- خلق منها زوجاً له، وهذه هي سنة الخلق ولابد لها من وقت وقانون، وهو ما تناسبه "ثم" وجعل خلق الزوج بعد خلق النفس الأولى، لذا فـ"ثم" باقية على معناها في الترتيب والتراخي.

و"ثم" في الآية الثانية "وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه" باقية

---

[1] الزمر، ٦.

[2] السجدة، ٧، ٨، ٩.

[3] الأنعام، ١٥٤.

على الترتيب والمهلة والعطف فالمادة الأولى طين ثم تحول الطين إلى خلية حية -ماء مهين- ثم سوى الماء المهين ونفخ فيه..

و"ثم" في سورة الأنعام في قوله "ثم آتينا موسى الكتاب" باقية على عطفها وزمنها وترتيبها، لأن ماقبلها وصايا قديمة أوصى الله سبحانه خلقه بها عن طريق أنبيائه وقصها على رسوله الأمين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تبدأ بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ وبعد تلك الوصايا القديمة قال له ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ قال الزمخشري: "فإن قلت: علام عطف قوله -ثم آتينا موسى الكتاب-؟ قلت: على "وصاكم به" فإن قلت: كيف صح عطفه عليه بـ-ثم- والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت: هذه التوصية قديمة لم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم كما قال ابن عباس[1]: محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، فكأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً و"ثم" أعظم من ذلك أنّا "آتينا موسى الكتاب" وأنزلنا هذا الكتاب المبارك.

ثانياً- "ثم" غير الزمانية:

هي التي يكون ما بعدها يختلف عما قبلها في المنزلة، بينهما بون شاسع، وفرق واضح، وكأننا نقول عند استعمالها "شتان" ما بعدها عما قبلها، شتان ما بين المنزلتين وما بين المقامين قد يكون

---

[1] الكشاف، ٦٢/٢.

ما بعدها أعلى منزلة وأسمى فضلاً أو يكون أدنى رتبة، وأقل شأناً، أو يكونا غير متشابهين أصلاً... ويبدو من هذا المعنى أن "ثُم" بالضم و"ثَم" بالفتح بينهما قدر مشترك في الدلالة هو أن كليهما يدل على البعد "ثم" بالفتح تدل على البعد المكاني و"ثم" بالضم تدل على بُعْدِ ما بعدها عما قبلها في الحدث أو المقام والمنزلة...

ورأى أحمد بن محمد بن المنير أن "ثم" هذه تساوي معنى "بعد ذلك" ومنه أُخذ معناها، وقال في شرحه لقوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ، مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[1].

وإنما اخذ كون هذين أشد معايبه من قوله –بعد ذلك– فإنه يعطي تراخي المرتبة فيما بين المذكور أولاً والمذكور بعده في الشر والخير، ونظيره في الخير قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[2] ومن ثم استعملت "ثم" لتراخي المراتب وإن أعطت عكس الترتيب الوجودي[3] وعن قتيلة "أن يهودياً أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: إنكم تشركون. تقولون: ماشاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا

---

[1] القلم، ١٠، ١١، ١٢، ١٣.

[2] التحريم، ٤.

[3] حاشية الكشاف، ١٤٢/٤.

ماشاء الله ثم شئت"[1]. وعن حذيفة ابن اليمان أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشاء محمد وذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال أما والله: إن كنت لأعرفها لكم. قولوا: ما شاء ثم شاء محمد[2].

عن حذيفة... أيضاً –عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان"[3].

وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أعوذ باله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. قال وقولوا: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا لولا الله وفلان[4].

وقال ابن بري: قد تجيء "ثم" كثيراً لتفاوت ما بين رتبتين في قصد المتكلم فيه تفاوت ما بين مرتبتي الفعل مع السكون عن تفاوت رتبتي الفاعل كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[5].

---

[1] سنن النسائي بشرح السيوطي، ٦/٧.

[2] سنن ابن ماجة، ٦٨٥/١.

[3] سنن أبي داوود، ٢٧٩/١.

[4] سنن أبي داوود، ٢٩٧/١.

[5] الأنعام، ١.

فـ"ثُم" هنا لتفاوت رتبة الخلق والجعل من رتبة العدل مع السكوت عن وصف "العادلين"[1]. وقال الزركشي: والحاصل أن ثم للتراخي في الزمان، وهو المعبر عنه بالمهلة، وتكون للتباين في الصفات وغيرها من غير قصد مهلة زمانية، بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله... ولم يقصد في هذا ترتيب زماني بل تعظيم الحال فيما عطف عليه وتوقعه، وتحريك النفوس لاعتباره[2]. وعلى ذلك جرى الزمخشري في مواضع كثيرة من الكشاف تتبعتها وعددتها فوجدتها في سبع وعشرين آية، وقسمتها قسمين: قسم للاستبعاد أي استبعاد حصول ما بعدها، ومع ذلك فهو حاصل، وقسم للتراخي في المراتب والمنازل.

أ- **الاستبعاد:**

يقصد به أن أمراً -ما- واضحاً أشد الوضوح متعيناً أحسن تعيين لا مجال فيه لمنكر أو جاحد، يعتري المتحدث شعور قوي بأن لا يحصل ما يناقضه ابداً، يصدق به، ويلتف حوله، ويسارع إلى الأخذ به، يستبعد أن يحدث مايخالفه، ولا يشك في وقوعه، ولكنه مع ذلك كله يحدث عكس المتوقع، ويوجد ما لا يتصور وجوده، وما لا يخطر في الحسبان حصوله، ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

---

[1] البرهان، ٤/٢٦٦.

[2] البرهان، ٤/٢٦٨.

تَعْقِلُونَ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾[1] وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2] وقوله ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ، هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[3].

وقوله ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[4]، فـ"ثم" في جميع الآيات السابقة تفيد الاستبعاد، استبعاد القسوة من بعد ذكره ما يوجب لين القلوب ورقتها بإحياء الموتى في الآية الأولى، وفي "ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم" استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء، والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم، والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون قوم آخرون غير أولئك المقرين، تنزيلاً لتغير الصفة منزلة تغير الذات كما تقول رجعت بغير الوجه الذي خرجت به، واستبعاد أن يعدلوا وأن يمتروا بعد وضوح آيات قدرته في خلق السموات والأرض، والظلمات والنور، وقدرته على الإحياء والإماتة والبعث، واستبعاد الاستكبار بعد سماعه آيات تتلى،

---

[1] البقرة، ٧٣-٧٤.

[2] البقرة، ٨٤-٨٥.

[3] الأنعام، ١-٢.

[4] الجاثية، ٨.

ومعناها –هنا– كمعناها في قول القائل "يرى غمرات الموت ثم يزورها" وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد فمعنى –ثم– الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق لما تليت عليه وسمعها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها[1].

ب–<u>التراخي في المراتب والمنازل:</u>

يمكن تقسيمها على ثلاثة أقسام:

١–ما بعدها أقل شأناً مما قبلها نحو: ما شاء الله ثم شاء فلان.

٢–ما بعدها أعظم وأشد مما قبلها كقوله تعالى ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[2] وقوله ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[3]. وذلك لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الإدبار، ولأن في "ثم كلا" دلالة على الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد كما تقول للمنصوح أقول لك ثم أقول لك لا تفعل[4].

---

[1] ينظر: الكشاف، ١/٢٩، ٢٩٣، ٢/٤، ٣/٥٠٩.

[2] آل عمران، ١١١.

[3] التكاثر، ٣، ٤.

[4] الكشاف، ١/٤٥٥، ٣/٢٨١.

٣-ما بعدها يختلف حالاً عما قبلها: كقوله تعالى ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[١] وقوله سبحانه ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢] و"ثم" في الآية الأولى لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع، وهي في الثانية للتفاوت بين الحالين أي: هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل كقولنا: فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل[٣].

---

[١] القصص، ٦١.

[٢] هود، ١.

[٣] الكشاف، ١٨٧/٣، ٢٥٨/٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١-الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، أحمد بن محمد بن المنير، مطبوع حاشية مع الكشاف، دار الفكر.

٢-البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، دار التراث، القاهرة.

٣-دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د.محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث.

٤-سنن ابن ماجة (محمد بن يزيد بن ماجة)، تحـ: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

٥-سنن أبي داود، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٦-سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية الشيخ السندي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٧-شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح شواهد العيني، دار إحياء الكتب العربية.

٨-علم الأصوات اللغوية، د.مناف مهدي الموسوي، ط١، ١٩٩٣، ليبيا.

٩-الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر.

١٠- لسان العرب، ابن منظور، ط٣، دار المعارف، مصر.

١١- مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحـــ: محيي الـــدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.
١٢- النحو العربي مذاهبه وتيسيره، د.عائـــد كـــريم علـــوان الحريزي، بغداد.

المبحث السابع

"على"

في القرآن الكريم

"على" في القرآن الكريم

"علا" بالألف القائمة فعل كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] و"على" بالألف المضطجعة على الياء حرف كقوله ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[2] وقد اجتمع الفعل والحرف في قوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[3] وإذا دخلت من عليه صار اسماً كقول مزاحم العجيلي:-

غَدت مِنْ عليهِ بَعدما تمّ خِمسُها

تَصِلُّ وعَنْ قَيضٍ ببيداءَ مَجهلُ[4]

والرابط بين الأقسام الثلاثة هو العلو والارتفاع، لكن الفعل فيه تدرج نحو العلو، ويعبر عن نهاية عملية هذا التدرج، وبلوغ غايته.

تقول: زيد علا السطحَ، بنصب السطح عند بلوغه من التدرج انتهاءه، وتقول: زيد على السطح، بجر السطح، عند استقراره عليه، فحرف الجر "على" يعبر عن حالة بعد انتهاء الفعل "علا" وبداية استقرار "زيد" فوق السطح في الجملة السابقة

---

[1] القصص، ٤.

[2] آل عمران، ٩٤.

[3] المؤمنون، ٩١.

[4] الكتاب، سيبويه، ٤/٢٣١.

و"زيد علا السطح" بالنصب يحدث قبل حدوث "زيد على السطح" بالجر، والصيغ كلها الفعلية والاسمية والحرفية تكون في الارتقاء فوق الماديات كالسطح مثلاً وفي المعنويات كقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1].

وقد يتعاقبُ الحرف "على" مع غيره من الحروف فلا يؤثر في معناه العام ولكنه يُعبر عن خصوصية معينة أو ملحظ من الملاحظ التي يقصد إليها المتكلم كالإشارة إلى المكان الذي يصدر منه الفعل أو ينتهي إليه أو يلتصق به أو يتخلله أو يمسه، وذلك كثير، ومنه قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[2] وكقوله ﴿وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾[3] فجاء تارةً بـ"على" دلالة لعلو مكان صدوره، وجاء بـ"إلى" تارةً أخرى إشارة إلى انتهاء غايته؛ "لوجود المعنيين جميعاً؛ لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل"[4] و"مثله: رميت عن القوس، وعلى القوس، ومن القوس؛ لأن السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي، ويبتدئ الرمي منها"[5] ومنه "مررت به" إذا كان المرور ملاصقاً لمكانه ومحاذياً له، و"مررت عليه" إذا كان المرور مواجهاً له ومقاطعاً ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ، وَإِنَّكُمْ

---

[1] البقرة، ٥.

[2] يونس، ٢٠.

[3] الرعد، ١.

[4] الكشاف، الزمخشري، ٤٤١/١.

[5] السابق، ٧١/٢.

لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] لكون الطريق فوق رفاتهم وفوق آثارهم يقطعها ويستعليها ولم يكن مُحاذياً لها، والفعل "خرج إليه" بمعنى برز له، وقصده، و"خرج عليه، تمرد عليه، وثار بوجهه، واستعلى حرماته، وتخلى عن قوانينه، ومنه قوله تعالى ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[2] لكون خروجه من مكان عالٍ من شرفة مثلاً أو لما في خروج يوسف من مواجهة ومشقة عليه، أو لإحداثه ثورة في نظرتهن إليه، وتبدُّل في شعورهن نحو القضية كلها إكباراً، وتقطيع أيدٍ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[3].

والفعل "كتب على" في جميع مواضعه في القرآن الكريم يفيد أن الكتابة آتية من الأعلى من السماء، ومستعلية على من كُتبت عليه، وواضحة كوضوح المكان العالي، وهي ملزمة لابد من تنفيذ مضمونها؛ إذ هي شريعة شرعها الله على عباده، كقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[4] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[5] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا

---

[1] الصافات، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨.

[2] يوسف، ٣١.

[3] يوسف، ٣١.

[4] البقرة، ١٧٨.

[5] البقرة، ١٨٣.

الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[1] فالقصاص لابد من تنفيذ حكمه، والصيام لابد من أداء شعيرته وهو فرض على من يستطيعه، والقتال لابد من خوض غماره إعلاءً للحق، والوصية لابد من قضائها وتأديتها مع ما يلاقيه المرء من مشقة في تنفيذ هذه الأمور.

وعندما تأتي اللام بعده، تدل على الهدوء والملكية لمن كُتِبَ له، لا شدة ولا مشقة في أداء الفعل، بل منافع لا مخاطر من ورائها كقوله تعالى ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾[2] وقوله ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].

والفعل "أرسل إليه" بمعنى وجهه إليه، وانتهى الأمر عنده كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾[4].

والفعل "أرسل عليه" سلطه عليه، وقهره به، وعاقبه بشيء "كالطوفان، والرجز، والشياطين، والحاصب" كقوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾[5] وقوله

---

[1] البقرة، ١٨٠.

[2] النساء، ١٢٧.

[3] التوبة، ١٢١.

[4] المؤمنون، ٢٣.

[5] الأعراف، ١٣٣.

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[1] وقوله ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2] وقوله ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾[3].

و"على" في جميع استعمالاته في اللغة العربية عامة والقرآن الكريم خاصة يفيد الاستعلاء والقوة أو الاستعلاء والاستقرار أو الاستعلاء والشدة، أو الاستعلاء والوضوح أو الاستعلاء والتمكن أو الاستعلاء والمقابلة أو المواجهة أو الاستعلاء والمشقة؛ لأن الشيء إذا استعليته وصعدت عليه أتعبك وشق عليك، ولهذا قالوا تنفس تَنَفُسَ الصُعداء، وإن حملته واستعلاك شق عليك أيضاً وأنصبك حتى وإن كان معنوياً نحو "علي عتب، وعلى زيد غضب".. وهكذا.

قال ابن جني: "وقد يستعمل "على" في الأفعال الشاقة المستثقلة، تقول قد سرنا عشراً وبقيت علينا ليلتان، وقد حفظت القرآن وبقيت عليّ منه سورتان... وإنما أطردت (على) في هذه الأفعال من حيث كانت (على) في الأصل للاستعلاء والتفرع فلما كانت هذه الأحوال كُلفاً ومشاق تخفض الإنسان وتضعه وتعلوه وتتفرعه حتى يخنع لها ويخضع لما يتسدّاه منها كان ذلك من

---

[1] الأعراف، ١٦٢.

[2] مريم، ٨٣.

[3] العنكبوت، ٤٠.

مواضع (على) ألا تراهم يقولون: هذا لك، وهذا عليك، فتستعمل اللام فيما تؤثره و"على" فيما تكرهه[1].

وقوله ﴿بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[2] وقوله ﴿أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[3] وقوله ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[4] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[5] وقوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[6].

وقوله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[7]؛ لكون ذلتهم على المؤمنين مستقرة واضحة قوية، ولأن عزتهم ترهق الكافرين وتتعبهم وتشق عليهم، ومستعلية بقوة شديدة، كقوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[8] وقوله ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾[9] معناه أن إعراضهم كبير وكأنه علاه وأثقل كاهله، واستقر على أكتافه، وقوله ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ

---

[1] لسان العرب، ابن منظور، ٨٧٦/٤، بيروت، .. مرتب على الحرف الأول من الكلمة.

[2] البقرة، ٢٤٧.

[3] الأنعام، ٦٥.

[4] التوبة، ١٢٠.

[5] البقرة، ٢١٦.

[6] البقرة، ٢٨٦.

[7] المائدة، ٥٤.

[8] الفتح، ٢٩.

[9] الأنعام، ٣٥.

بِمَا رَحُبَتْ﴾[1] معناه أن الضيق شديد مستحكم ظاهر على وجوههم ونفوسهم قد شملهم، واستقر عليهم، لا يستطيعون التخلص منه وكأنهم في ظرف يضيق عليهم شيئاً فشيئاً.. وقوله ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾[2]، لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه كما تقول غدا عليهم العدو[3] ومنه قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾[4] إشارةً إلى بلوغ الذروة من الكبر ودلالة على المقدرة الكبيرة التي تهب الأولاد على مثل هذه الحال و"على" في قوله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[5] وقوله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾[6] وقوله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[7] يدل على أن الضرب محكم ومستعل على آذانهم ليمنعهم من سماع الأصوات لكي يستمروا في نومهم وأن الذلة والمسكنة مضروبتان عليهم بشدة وكأنهما خيمة تضمهم، وان الخمر لابد أن تضرب بقوة

---

[1] التوبة، ٢٥.

[2] القلم، ٢١، ٢٢.

[3] الكشاف، ١٤٤/٤.

[4] إبراهيم، ٣٩.

[5] الكهف، ١١.

[6] البقرة، ٦١.

[7] النور، ٣١.

وباستحكام على الجيوب كما يُثبّت الشيء بالضرب؛ لئلا تسقط بين حين وآخر.

و"على" في قوله ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1] يدل على أن التوبة واضحة شملتهم، واستقرت عليهم وضمتهم، وهي أكيدة ومحكمة لا ريب فيها، وقوله ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[2] معناه لتستمر المحافظة، وتستقر، وبالتزام وعدم تفريط، وقوله ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، ونحو: هو على الحق، وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى[4] ولهذا خولف بينه وبين "في" في قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[5]؛ لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه[6] وسيبويه لم يذكر لـ"على" سوى الاستعلاء حقيقة أو

---

[1] البقرة، ٥٤.

[2] البقرة، ٢٣٨.

[3] البقرة، ٥.

[4] الكشاف، ١٤٣/١.

[5] سبأ، ٢٤.

[6] الكشاف، ٢٨٩/٣.

مجازاً[1] فقال: "أما –على– فاستعلاء الشيء تقول: هذا على ظهر الجبل، وهي على رأسه... وأما مررت على فلان... وعلينا أمير، فكذلك، وعليه مال أيضاً، وهذا لأنه شيء اعتلاه، ويكون مررت عليه، أن يريد مروره على مكانه، ولكنه اتسع، وتقول: عليه مال –كما يثبت الشيء على المكان كذلك يثبت هذا عليه فقد يتسع هذا في الكلام ويجيء كالمثل[2] وتابعه المبرد في ذلك أيضاً وعنده أن "على" يأتي للاستعلاء الحقيق كقولك: هو على الجبل، وحمله على ظهره، ويأتي للاستعلاء المجازي كقولهم: عليه دين: كأن علاه وركبه؛ ولذا تقول العرب ركبتني ديون، كأنه يحمل الدين على عنقه أو على ظهره، ومنه عليّ قضاء الصلاة، وعليه القصاص؛ لأن الحقوق كأنها راكبة لمن تلزمه[3].

وذكر أحمد بن فارس (ت ٣٩٥) أن "على" يكون للعلو: تقول: هو على السطح، ويكون للعزيمة كما تقول: أنا على الحج، وتكون للثبات على الأمر تقول: أنا على ما عرفتني، وتكون للخلاف مثل: زيد على عمرو، أي مخالفه، وهي وإن تشعبت راجعة إلى أصل واحد[4].

وذهب جمهور الكوفيين إلى جواز إنابة حروف الجر بعضها عن بعض وذهب جمهور البصريين إلى عدم جواز

---

[1] الكتاب، ٤/٢٧٠.

[2] الكتاب، ٤/٢٣٠-٢٣١.

[3] شرح الرضي، ٢/٢٧٩، وانظر: المقتضب، ١/٤٦.

[4] الصاحبي في فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس، ١١٢-١١٣.

الإنابة، وتابع ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) الكوفيين ووضع في كتابه "تأويل مشكل القرآن" باباً سماه "باب دخول حروف الصفات مكان بعض"[١]، وذهب أبو هلال العسكري مذهب البصريين في كتابه "الفروق في اللغة"، فقال: "وإذا كان اختلاف الحركات يوجب اختلاف المعاني فاختلاف المعاني أنفسها أولى أن يكون كذلك، ولهذا المعنى أيضاً قال المحققون من أهل العربية إن حروف الجر لا تتعاقب حتى قال ابن درستويه في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس قال أبو هلال -رحمه الله- وذلك أنها إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منهما بمعنى الآخر فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد فأبى المحققون أن يقولوا بذلك، وقال به من لايتحقق المعاني وللنحاة آراء متعددة إزاء ظاهرة مجيء حرف جر بعد فعل لا يناسبه في الظاهر نحو "رضي عليٌّ زيدُ" هي:-

١-**الإنابة:** أي أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض اتساعاً كما قال الكوفيون.

٢-**البقاء على الأصل:** أي أن الحرف باق على أصله لمعنى بلاغي يتوصل إليه بالنظر الدقيق كما قال جمهور البصريين.

---

[١] تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ٥٦٧-٥٧٨.

٣- **التضمين**: وذلك بتضمين الفعل المذكور معنى فعل يناسب حرف الجر المذكور كتضمين الفعل "رضي" معنى الفعل "عطف".

٤- **الحمل على معنى فعل آخر**: كحمل الفعل "رضي" على نقيضه "سخط" عن الكسائي.

٥- **التقدير**: لأن استعمال حرف جر بعد فعل لا يناسبه يدل على وجود فعل يناسب الحرف بعد الفعل المذكور ولكنه حذف اختصاراً لدلالة حرف الجر الموجود ليدل بالفعل الموجود، والفعل المحذوف الذي أشار إليه حرف الجر على معنى "فعلين" أحدهما مذكور، والآخر محذوف نحو ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾[1]، أي: ونصرناه ونجيناه من القوم.....

ومهما يكن من شيء فبعض النحاة زاد في معاني "على" وإنابته عن بعض الحروف حتى أوصلها ابن هشام في المغني إلى سبعة معان في القرآن الكريم وإلى تسعة معانٍ في اللغة العربية عامة، وعند التدقيق والتدبر رأينا أن "على" في جميع معانيه يرجع إلى معنى واحد هو العلو الحقيقي أو المجازي، وأن البصريين على سواء السبيل في منعهم إنابة الحروف بعضها عن بعض.

---

[1] الأنبياء، ٧٧.

ولو أريد لـ"على" أو غيره أن ينوب مناب حرف جر آخر فما المانع من إيراد ذلك الحرف أولاً؟ ولماذا يوضع حرف جر ليدل به على معنى حرف جر آخر؟ ولم لا يصار إلى الحرف الأصلي؟

وما نؤمن به أن حروف الجر لا تزاد في القرآن خاصة لأنها لو كانت زائدة فما الداعي إلى الإتيان بها، وأن القول بزيادتها فيه حرام ولا يقول به أحد العقلاء.

وما نؤمن به أيضاً أن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض -اتفاقاً وجمهور البصريين- ولو أريد ذلك لأتى بالحرف الأصلي الذي وضع للمعنى المراد، ولا داعي إلى الإتيان بحرف ويقال فيه إنه نائب عن حرف آخر؛ لأن ذلك خلاف الحكمة والمعقول، ويؤدي إلى إزالة بلاغة التعبير الذي اختير حرف من الحروف لمناسبتها والتعبير عنها.

وسيتضح الأمر في عرض ومناقشة المعاني التي ذكرها ابن هشام لـ"على" وهي:-

١-**الاستعلاء:** إما على المجرور وهو الغالب نحو ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[١]. أو على مايقرب منه نحو ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[٢] وقد يكون الاستعلاء معنوياً نحو "لهم

---

[١] المؤمنون، ٢٢.

[٢] طه، ١٠.

على ذنب" ونحو ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1] وهذا هو المعنى الوحيد الذي أراه لـ"على" في جميع التراكيب التي يرد فيها.

٢-**المصاحبة:** كـ"مع" نحو ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[2] ونحو ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[3] و"على" في هذا الموضع يفيد الاستعلاء ولا يدل على المعية، وقيل في تفسير حبه: أي حب المال، وقيل حب الله، وقيل حب الإيتاء، فيكون تفسير الآية هكذا: أن لدى المؤمن حبين: حب المال، وحب البر، ولكن حب البر تغلّب على حب المال فأنفقه لـ﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾[4] وإذا كان المقصود على "حب الله" فيكون لدينا محبوبان "الله، والمال" ولكن محبة الله ترسخت في نفسه وفاقت حب المال، واستعلت عليه فأنفقه واستبقى محبة الله لم يفرط بها، وإذا كان المقصود "حب الإيتاء"، فيكون لدينا حبان "حب الإيتاء وحب المال، ويفوق "حب الإيتاء" على "حب المال" فينفق المال إبقاء للكرم وهكذا.. لكنني أرجح أن المقصود هو "حب المال"؛ لأن الضمير يعود على أقرب اسم له وهو المال "في هذه الآية"،

---

[1] البقرة، ٢٥٣.

[2] البقرة، ٧٧.

[3] الرعد، ٦.

[4] البقرة، ٧٧.

ومثلها قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1] أي أن قوتهم الإيمانية استعلت على "حب الطعام" وحاجتهم إليه فأطعموه للمسكين واليتيم والأسير...

وقال الدكتور فاضل السامرائي في تعليقه على الآية: "وآتى المال على حبه": "والظاهر أنها للاستعلاء وليست بمعنى "مع" تماماً فقوله (على حبه) قد يفيد أنه مستعل على حبه أو أنه يؤتي المال مع انطواء قلبه على حبّه، فحب المال في القلب، والقلب منطوٍ عليه وهي حالة تختلف عن المصاحبة، فانطواء القلب على الشيء أشد من مصاحبته له.. "ونقول: هو ينفق على شحه، وهو ينفق مع شحه، والمعنى مختلف، فمعنى (على شحه) قد يفيد أنه مستعل على شحه أو على معنى أنه ينفق مع انطواء قلبه على الشح وهو غير المصاحبة"[2].

وأما قولهم: هو على جلالته، فمعناه: "أنه يلزمها لزوم الراكب لمركوبه من قولهم: ركبته الديون أي لزمته"[3].

وقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ معناه أن الناس على ظلم وملازمون له ملازمة الراكب لمركوبه، وإن الله غفور رحيم يتجاوز ظلمهم ويغفر لهم على الرغم من تربعهم على

---

[1] الإنسان، ٨.

[2] ينظر: معاني النحو، ٤٧/٣.

[3] شرح الرضي، ٣٧٩/٢.

الظلم ومعنى "فلان على الظلم" يختلف عن معنى "فلان مع الظلم" قوة وشدة وتمكناً إذ هو مستقر عليه ودائم على ممارسته....

٣-**المجاوزة لـ:** عن "مثل" بعُد عني... وبعُد عليّ" قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾[١] فالتعبيران: بعُد عني.. وبعُدَ عليّ: متفقان في المعنى العام ومختلفان في المعنى الدقيق، فبعُد عني: نأى عني، ضد قرب، وأنا غير مهتم لفراقه، ولا مكترث لبعده، وبعُد علي: معناه نأى: ضد قرُب أيضاً، ولكنَّ بُعْدَه شاقّ عليّ، وأنا متألم لبعده، ومتشوق للقائه وكأن بُعْدَهُ شيء ثقيل محمول على الظهر حتى صار هماً من الهموم، وبُعْدُ الشقة في الآية كأنهم يحملونه على أكتافهم إذْ أخافهم وأرعبهم، والآية تشير إلى ذلك فالعرَضُ بعيد، والسفر طويل غير قاصد لذلك بعدت عليهم، ولم تبعد عنهم.

٤-**التعليل كاللام:** كقوله تعالى ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾[٢] التكبير لغة هو رفع الصوت بالحمد والشكر، والقول: الله أكبر، الله أعظم من كل شيء، ويكون معنى الآية كبروا الله بالآذان، واحمدوه واشكروه على الهداية التي هي "الإسلام" ليكون التكبير في الآذان وفي غيره إعلاناً لكل صلاة وعنواناً للإسلام وعلماً عليه يسير حيثما

---

[١] التوبة، ٤٢.

[٢] البقرة، ١٨٥.

سار المسلمون، وانتشر الإسلام، وكأنني ألمح في هذه الآية الكريمة إشارة إلى كروية الأرض؛ لأن "الله أكبر" في كل آذان يرتفع على مدار اليوم في كل دقيقة أو ثانية مع دورة الأرض حول نفسها، لوجود المسلمين على بقاع الأرض كافة، وهذا المعنى لا تعطيه لام التعليل لو وضعت موضع "على"...

قال الزمخشري: "وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء؛ لكونه مضمناً معنى الحمد، كأنه قال: ولتكبروا الله حامدين على ماهداكم الله"[1] وقال أبو حيان الأندلسي: "على تتعلق بتكبروا- وفيها إشعار بالعلية كما تقول: أشكرك على ما أسديت إلي"[2] وقال الدكتور فاضل السامرائي: "وأما التعليل بـ(على) ففيه معنى الاستعلاء فإذا قلت: كافأته على إحسانه. كان المعنى كأنك وضعت المكافأة على الإحسان، وإذا قلت: عاقبته على إساءته كان المعنى كأنك جعلت العقوبة على الإساءة أي وضعتها عليها. قال تعالى ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي يكون التكبير على الهداية كما تقول: كبر على النصر. أي جعل النصر شيئاً يكبروا عليه كما يكون التكبير على الذبيحة ونحوها[3].

---

[1] الكشاف، ٣٣٧/١.

[2] البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الاندلسي، ٢٠٤/٢.

[3] معاني النحو، ٨٩/٣

٥-**الظرفية "في"**: نحو: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾[١] ونحو ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[٢] أي في زمن ملكه، ويحتمل أنّ "تتلو" مضمن معنى تتقول؛ فيكون بمنزلة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾[٣] هذا ما قاله جمهور النحاة والمفسرين[٤] ولكن المتدبر يرى غير ذلك ويجد أن "على" باق على استعلائه، وأن مجيئه في الآيتين مقصود، ولغرض بلاغي والملاحظ أن الفعل دخل ومشتقاته يأتي متعدياً بنفسه نحو: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾[٥] ويقع بعده الحرف "في" نحو ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء﴾[٦] والحرف "من" نحو ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾[٧] والباء نحو ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[٨] و"على" كقوله ﴿دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ﴾[٩] ويتلون المعنى الدقيق للفعل باختلاف حرف الجر بعده، فبدون حرف جر يدل على سرعة الدخول، ولذلك لم يأت حرف

---

[١] القصص، ١٥.

[٢] البقرة، ١٠٢.

[٣] الحاقة، ٤٤.

[٤] البحر المحيط في التفسير، ٥٢٣/١.

[٥] النمل، ٣٤.

[٦] الفتح، ٢٥.

[٧] يوسف، ٦٨.

[٨] النساء، ٢٣.

[٩] يوسف، ٦٩.

مع دخول الجنة، ومع "من" يدل على بداية الدخول، ومع "الباء" يدل على الملامسة والملاصقة الشديدة، ومع "في" يدل على الظرفية، وأن الدخول فيه يشملهم من جميع أقطارهم، ومع "على" يدل على المواجهة، والمقابلة، لكنه في الآية "ودخل المدينة على حين.." لا يدل على المواجهة، ولا يعطي معنى "في" -كما قال النحاة- ولكنه باق على استعلائه، والمعنى أنه دخل المدينة، وأهلها على أعظم ما تكون الغفلة فيهم، وكأنه ركب الغفلة ودخل عليها قال القرطبي: "ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخل "على" في هذه الآية؛ لأن الغفلة هي المقصودة فصار هنا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت جئت على حين غفلة"[1].

و"على" في قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ باق على معناه في الاستعلاء؛ لأن الشياطين تأتي من "علو" فتتابع التلاوة وتحسنها؛ لأن متابعة الكلام وتحسينه يجعله مقبولاً عند الناس من جهة، ويثقل ويشق على من يتلى عليه من جهة ثانية فيناسب المعنى لـ"على"؛ ولأن الفعل "تتلو على" في هذا الموضع خاصة يعني تكذب عليه، قال القاسمي: "تتلو بمعنى: تقص، وتحدث من التلاوة، وهي القراءة أو بمعنى تكذب وتختلق، وهو قول أبي مسلم، قال: يقال: تلا عليه إذا كذب، وتلا عنه إذا

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/٢٩٠.

صدق، وهكذا قال الراغب في (تفسيره): تلا عليه كذب، نحو روى عليه وقال عليه[1] وعليه فلا مسوغ لتأويل "على" بـ"في" لأن في تأويله طمساً للمعنى البلاغي الدقيق المقصود بـ"على" في الآية، ويؤدي إلى مخالفة المعنى اللغوي للفعل "تتلو على".

٦-**موافقة "من"**: كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[2] ذلك ما قاله ابن هشام[3] وكأنها قضية مسلم به، بينما الواقع غير ذلك؛ إذ هي موافقة لـ"من" عند الفراء[4] وباقية على استعلائها فيما ذهب إليه الزمخشري[5]، وأرى أن إعطاء "على" معنى "من" لايؤدي المعنى البلاغي الذي أراده القرآن الكريم مقارنة صورتين بشعتين مختلفتين صورة استيفاء ما على الناس التي اختار لها فعلين مزيدين "اكتال، واستوفى" لتدل زيادة حروفهما وكثرتها على زيادة وكثرة ما يؤخذ من الناس والصورة الثانية صورة رد الديون للناس التي اختار لها فعلين مجردين هما "كال، ووزن" لتناسب قلة حروفهما صفة

---

[1] محاسن التأويل، لقاسمي، ٦٣٣٧/١، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٧٢.

[2] سورة المطففين، ١، ٢، ٣.

[3] مغني اللبيب، ابن هشام، ١٦٥/١.

[4] معاني القرآن، الفراء، ٢٤٦/٣.

[5] الكشاف، ٢٣٠/٤.

الخسران في رد الديون، وقال "كالوهم أو وزنوهم" ولم يقل: كالوا لهم أو وزنوا لهم، وكلاهما جائز؛ لأن اللام للاستحقاق وهم لا يعطونهم كل استحقاقهم فحذفها إشارة إلى ذلك ويبدو أن الذين ذهبوا إلى أن "على" بمعنى "من" ذهبوا إلى ذلك من غير تمحيص؛ ترديداً لقول الفراء: "يريد اكتالوا من الناس وهما تعتقبان "على ومن" في هذا الموضع؛ لأنه حق عليه، فإذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ما عليك وإذا قال اكتلت منك فهو كقولك: استوفيت منك[1] والحق أن "على" باق على استعلائه معبر عن ظلم التطفيف الذي حرمه الإسلام، وقد أحسن الزمخشري كل الإحسان في تخريج الآية بقوله: "لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل -على- مكان - من- للدلالة على ذلك، ويجوز أن يتعلق "على" بـ"يستوفون" ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية: أي يستوفون على الناس خاصةً فأما أنفسهم فيستوفون لها"[2].

ونقل الرازي تخريجي الفراء والزمخشري ولم يعلق عليهما لكنه قدم تخريج الزمخشري لوجاهته من غير أن ينسبه لصاحبه، وكأنه من بنات أفكاره وقال: "إن اللغة المعتادة أن يقال: اكتلت من

---

[1] معاني القرآن، ٣/٢٤٦.

[2] الكشاف، ٤/٢٣٠.

فلان، ولا يقال: اكتلت على فلان، فما الوجه ههنا؟ الجواب: من وجهين: الأول: لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً فيه إضرار بهم وتحامل عليهم أقيم -على- مقام -من- الدالة على ذلك، الثاني: قال الفراء: المراد اكتالوا من الناس، وعلى، ومن، في هذا الموضع يعتقبان[1] وذكر القاسمي رأي الزمخشري فقط، ولم ينسبه أيضاً وقال: "وإيثار "على" "من" للإشارة إلى ما عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر شأن المتغلب المتحامل المتسلط الذي لا يستبرئ لدينه، وذمته"[2].

٧-**موافقة الباء:** كقوله تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[3] هذه الآية فيها أربع قراءات "على" بالألف، وعلي، بالياء وهي قراءة نافع، ومن غير "على" "حقيق أن لا أقول" وهي قراءة عبد الله وبالباء" حقيق بأن لا أقول" وهي قراءة أبي والأعمش[4] ويقصد ابن هشام قراءة الألف بإنابة "على" عن "الباء" بدليل قراءتها بالباء، ولكن الأرجح عندي غير ذلك؛ لأن معنى حقيق: ثابت وقادر والثابت على قول شيء هو مستعل عليه، وقد ذكر الزمخشري أربعة

---

[1] التفسير الكبير، الرازي، ١٦/٨٧-٨٨.

[2] محاسن التأويل، ٧/٢٨٠-٢٨١.

[3] الأعراف، ١٠٤-١٠٥.

[4] الجامع لأحكام القرآن، ٧/٢٥٦.

توجيهات أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس كقول خداش بن زهير:

نزلتُ بخيلٍ لا هوادةَ بينها وتشقى الرماحُ
بالضياطرة الحُمرِ[1]

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح فيكون بمعنى قراءة نافع أي قول الحق حقيق عليَّ، فقلب اللفظ فصار: حقيق على قول الحق. الثاني: أن ما لزمك فقد لزمته فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق: أي لازماً له، والثالث: أن يضمن حقيقاً معنى حريص... والرابع: وهو الأوجه الأدخل في نكت القرآن أن يُغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لاسيما وقد روى أن عدو الله فرعون قال له لما قال إني رسول من رب العالمين: كذبت، فيقول: أنا حقيق على قول الحق أي واجب عليَّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به[2].

---

[1] الكشاف، ٤/٤٠٣.

[2] السابق، ٢/١٠٠-١٠١.

الخلاصة

١. إن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض كما قال البصريون، ولم أجد لهم كتاباً أو حتى ورقة واحدة توضح رأيهم.

٢. إن القول بإنابة الحروف تضييع للمعنى الدقيق المقصود بحرف دون غيره.

٣. إذا أتى بحرف وأريد به غيره، فلماذا لا يؤتى بالحرف المراد -أولاً-؟ وما المانع من ذلك؟.

٤. إن القول بالإنابة أو بالزيادة -في كتاب الله- غير مقبول، لا يقول به منصف.

٥. الزمخشري خير مَنْ يتذوق المعاني البلاغية في كتاب الله، وإن المفسرين من بعده أخذوا عنه، ولا يُشيرون إليه أحياناً، وفي معاني "على" نقل منه الرازي والقاسمي، ولم يُشيرا إليه، لكنهما أشارا إلى غيره كالفراء.

٦. إن قول ابن جني -في أثناء البحث- بأن "على" للاستعلاء والأفعال الشاقة، قول على جانب كبير من الصحة، ولا يرد عليه "على" في قوله "أذلة على المؤمنين"[1]، لأنها ذلة مقصودة، غير حقيقية، ذلة أرادها صاحبها، ذلة ولكنها من موقع قوة، إنها تواضع القوي، وتسامح الكريم، وإحسان المحسن، وعطف الحاني.

---

[1] المائدة، ٥٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
١. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف.
٢. تأويل مُشكل القرآن، ابن قتيبة محمد بن عبد الله، شرحه أحمد الصقر، ط٢، ١٣٩٣هـ، القاهرة.
٣. التفسير الكبير، الرازي محمد بن عمر، دار إحياء التراث.
٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد، دار الكتاب العربي.
٥. شرح الرضى على الكافية، رضى الدين الاستربادي.
٦. الصاحبي في فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس، بيروت، دار الكتب العلمية.
٧. الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون.
٨. الكشاف، الزمخشري محمود بن عمر، دار الفكر.
٩. لسان العرب، ابن منظور، مرتب على الحرف الأول من الكلمة، بيروت.
١٠. محاسن التأويل، القاسمي محمد جمال الدين.
١١. معاني القرآن، الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد.
١٢. معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، بغداد.
١٣. معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل.

١٤.المقتضب، المبرد محمد بن يزيد، تحقيق عبد الخالق عضيمة.
١٥.مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، بيروت.

المبحث الثامن

"في"
في القرآن الكريم

"في" في القرآن الكريم

"في" حرف جر يفيد الظرفية، والظرف هو ما تضمن معنى "في" باطراد "ويدخل هذا الحرف على ظروف الزمان المبهمة والمختصة مثل "عشت في زمن" وسافرت في يوم الجمعة، ويدخل على ظروف المكان المختصة نحو "دخلت في الغرفة" ولا يدخل على المكانية المبهمة نحو "تحت وفوق".

واستعمالاته في القرآن الكريم في تقديمه وتأخيره، وتعاقبه مع غيره له دلالات معنوية علمية، وبلاغية، وشرعية فمن تعاقبه مع غيره لدلالة معنوية قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1] "فخولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه[2].

ومن إشاراته العلمية أن القرآن الكريم لم يستعمل إلا الحرف "في" عندما تحدث عن السير في الأرض، فجاءت ست آيات بصيغة الأمر ومعها الحرف "في" نحو ﴿فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾[3].

وجاءت سبع آيات بصيغة المضارع المجزوم ومعها الحرف "في" نحو ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

---

[1] سبأ، ٢٤.

[2] الكشاف، ٣/٢٨٩.

[3] آل عمران، ١٣٧.

مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] وذلك إشارة علمية إلى أن الأرض كروية ويحيطها غلاف غازي والسائر عليها هو داخل الغلاف الغازي فتكون الأرض وغلافها ظرفاً له، والأنسب لذلك استعمال حرف الجر الدال على الظرفية[2].

وفي قوله ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3] قدم "فيه" على "مواخر" اهتماماً بالبحر وترغيباً في معرفة علم البحار، وآخره في قوله ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4] إيماء إلى صناعة السفن وشقها الماء عند جريها، ولأن الحديث كان عن وسائل النقل خيل وبغال، والسفن إحدى هذه الوسائل ومن تعاقبه مع غيره وترتيب حكم شرعي عليه تعاقبه والحرف "من" قوله ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾[5] وقوله ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[6] فاستعمل "فيها" دلالة على أن الرزق من أرباح أموالهم التي تشغل

---

[1] يوسف، ١٠٩.

[2] معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، ص٤٦، والإعجاز العلمي في القرآن، محمد السيد أرناؤوط، ص١٩٦.

[3] فاطر، ١٢.

[4] النحل، ١٤.

[5] النساء، ٥.

[6] النساء، ٨.

في تجارة أو زراعة أو صناعة واستعمل "منها" دلالة على أن الرزق من رأس المال فقط.

ومن ذلك تعاقبه و"اللام" في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1] فاقتران لام الملك بالأربعة الأول دليل على تمليكهم نصيبهم من الصدقات، ومجيء "في" الظرفية مع الأربعة الباقية تعبير عن أنهم لا يملكون، وإنما تصرف في شؤونهم، بدفع مال لمالك الرقبة لعتقها، وللدائن لخلاص الغارم، وتصرف في سبيل الله، وابن السبيل، وكررت مع "سبيل الله" توكيداً لأهمية الصرف في هذا الباب، قال الزمخشري: "وعدل عن اللام إلى -في- في الأربعة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم مما سبق ذكره، لأن "في" للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة لها ومصباً[2].

وقال علي بن محمد: "وثم سر آخر هو أظهر وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاّك لما عساه يدفع إليهم وأن ما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام لائقاً بهم، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله

---

[1] التوبة، ٥٩.

[2] الكشاف، ١٩٧/٢.

السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محالّ لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنه على القريب منه أقرب[1] ومن دلالته البلاغية في التقديم والتأخير قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[2] فأخر شبه الجملة "فيه" ولم يقل "لا فيه ريب" ولكنه سبحانه قال ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[3] فقدم شبه الجملة "فيها" ولم يقل "لا غول فيها" لأن قوله: "لا ريب فيه" معناه أن الكتاب لا ريب فيه ولا في غيره من الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل، ولو قال: "لا فيه ريب" لصار المعنى أن القرآن الكريم لا ريب فيه، وأن الكتب الأخرى مسكوت عنها أفيها ريب أم لا؟ وهذا المعنى غير مراد بل يؤدي إلى الضلال، وقوله: "لا فيها غول" قصر ومعناه أن خمرة الجنة لا غول فيها أي لا أذى فيها بعكس خمور

---

[1] حاشية الكشاف، ١٩٨/٢.

[2] البقرة، ٢.

[3] الصافات، ٤٧.

الدنيا، ولو قال: "لا غول فيها" لصار المعنى لا غول فيها ولا في غيرها، وهو خلاف المألوف في خمور الدنيا.

وقسم من الأفعال يختص بحرف جر واحد نحو "توكل" مثل: على الله توكلت، وقسم يأتي بعده حرفان أو أكثر ويتغير معناه قليلاً أو كثيراً، وقد يصل التغيير إلى الضد، نحو "رغبت في الخير، ورغبت عن الشر، ورغبت إلى الله، الأول أحببته، والثاني كرهت الشر، والثالث: تضرعت إلى الله وتذللت، ولكن هذا الفعل ورد في سورة النساء بغير حرف ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾[1] ليكون الحكم عاماً شاملاً للحب والكره، لأن الرجل كان منهم "يضم اليتيمة ومالها إلى نفسه، فإن كانت جميلة تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها" وترغبون أن تنكحوهن يحتمل أن تنكحوهن لجمالهن، وعن أن تنكحوهن لدمامتهن، وروى أن عمر بن الخطاب.. كان إذا جاءه ولي اليتيمة نظر فإن كانت جميلة غنية قال: زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك وإن كانت دميمة ولا مال لها قال: تزوجها، فأنت أحق بها[2].

وقسم من الأفعال تقع بعده حروف جر متعددة فيبقى معناه العام كما هو، ولكن تحدث فروقات لغوية دقيقة بسبب اختلاف حروف الجر.

---

[1] النساء، ١٢٧.

[2] الكشاف، ٥٦٧/١.

فالفعل "أرسل" جاء في القرآن مجرد من حرف الجر نحو ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ومع الباء نحو ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾[1] ومع "على" نحو ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[2] ومع "في" نحو ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾[3] ومع "إلى" نحو ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[4] ومع "اللام" نحو: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾[5] ومع "من" نحو ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ﴾[6] ومع"في" نحو ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾[7].

فأرسل من غير حرف معناه عام وهو الإرسال، وأرسل مع الباء يدل على شدة تعلق المرسل بما أرسل به، إنه إرسال ملاصق ومستعان بما دخلت عليه الباء، إن النبي لديه إيمان عظيم برسالته، وتبليغها إلى من أرسل إليهم، وأرسل مع "على" لم يأت في القرآن إلا في موضع العقوبة والأذى، وأرسل مع "في" تدل على أن الأمة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال، وتشير إلى تنقل وتخلل بين الناس يكلم هذا ويحاجج ذاك، ويوضح لآخر، لنشر

---

[1] التوبة، ٣٣.

[2] الفيل، ٣.

[3] الشعراء، ٥٣.

[4] طه، ١٣٤.

[5] النساء، ٧٩.

[6] النساء، ٦٤.

[7] المؤمنون، ٣٢.

رسالته، وأرسل مع "إلى" يفيد انتهاء الإرسال عند من أرسل إليهم، وأرسل مع "اللام" تفيد كأن الرسول أصبح ملكاً لمن أرسل إليهم لشدة حبه لهم، وتفانيه في سبيل مصلحتهم، وأرسل مع "من" تفيد من بداية ما يقال له رسول أي من بداية تحمله شرف الرسالة السماوية...

والنحاة مختلفون في إنابة حروف الجر بعضها عن بعض، فأجازه جمهور الكوفيين، ومنعه جمهور البصريين، ورأوا أنه لا ينوب عن آخر إلا شذوذاً، وأما قياساً فلا، وما أوهم خلاف ذلك فهو محمول على التضمين أو على المجاز[1].

وذهب الدكتور فاضل السامرائي إلى أن الأصل في حروف الجر أن لا ينوب بعضها عن بعض... وأن لكل حرف معناه واستعماله، ولكن قد يقترب معنيان أو أكثر من معاني الحروف فتتعاور الحروف على هذا المعنى[2] فمثلاً قد يتوسع في معنى الإلصاق بالباء فيستعمل للظرفية فتقول أقمت بالبلد وفي البلد، ولكن يبقى لكل حرف معناه، واستعماله المتفرد به ولا يتماثلان تماماً[3].

واستناداً إلى رأي جمهور الكوفيين فقد ذكر المتأخرون من النحاة كابن هشام أن لـ"في" عدة معان[4] هي: أحدها الظرفية،

---

[1] معاني النحو، د.فاضل السامرائي، ٣/٧.

[2] المرجع السابق، ٣/٧.

[3] المرجع السابق، ٣/٨.

[4] مغني اللبيب، ابن هشام، ١/١٩١-١٩٢.

وهي إما مكانية أو زمانية، وقد اجتمعا في قوله تعالى ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[1].

الثاني: المصاحبة نحو ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾[2] ونحو ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[3].

الثالث: التعليل نحو ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[4] و﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾[5].

الرابع: الاستعلاء نحو ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[6].

الخامس: مرادفة إلى نحو ﴿فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾[7].

السابع: المقايسة –وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق نحو ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[8].

الثامن: التوكيد، وهي الزائدة لغير التعويض[9] نحو ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا﴾[10].

---

[1] الروم، ٢.

[2] التوبة، ٤٧.

[3] القصص، ٧٩.

[4] يوسف، ٣٢.

[5] النور، ١٤.

[6] طه، ٧٢.

[7] إبراهيم، ١٤.

[8] التوبة، ٣٨.

[9] مغني اللبيب، ١/١٩٢.

[10] هود، ٤١.

والصحيح أن "في" في الآيات السابقة باقية على ظرفيتها، وإنها تعطي من المعاني في تلك المواضع ما لا يعطيه غيرها من الحروف أو الأسماء، ولو خرجت "في" عن ظرفيتها لما أدت المعاني الإعجازية التي أرادها القرآن الكريم، وهذه هي السمة المميزة في التعبير القرآني، استعمال اللفظ المناسب لأداء المعاني الدقيقة المقصودة، وفي اختيار التراكيب المعبرة عن المعاني المرادة.

ولو استعمل حرف آخر في تلك الآيات، ولتلك المعاني لما كان فيها إعجاز، فالمصاحبة التي تدل عليها "في" غير المصاحبة التي تدل عليها "مع" وكذلك الأمر للاستعلائية والمعاني الأخر كما سنرى.

فمعنى "خرجوا فيكم" يساوي "خرجوا معكم" في المعنى العام، ولكن لا يساويه في المعنى الدقيق و"في زينته" لا يساوي "مع زينته" في معناه الخاص.

المقصود بـ"لو خرجوا فيكم" لو خرجوا وانتشروا بينكم وفي أثناء جموعكم يكلمون هذا بالخذلان، ويثبطون عزم ذاك عن الجهاد، ينتقلون من جهة إلى أخرى من الميسرة إلى الميمنة، ثم القلب أو المقدمة يخمدون العزائم، ويفشلون الهمم، ويبثون الرعب والفزع والخوف بينكم، وهذا هو المعنى الذي يعطيه الحرف "في" الدال على الظرفية ولا يعطيه اللفظ "مع" الدال على الرفقة فقط، ولا يدل على تغلغل بين المقاتلين وعليه فإن معية "في" تختلف عن

معية "مع" كما قلنا لأن مصاحبة "في" تخلل وانتشار بين الجموع، ومعية "مع" لا تدل إلا على المصاحبة التي قد تكون معزولة أو غير معزولة ولهذا فإن "مع" في هذا المعنى، وفي هذه الصورة الموحية لا تعطي ما تعطيه "في" من المعنى المقصود.

ومعنى الزينة في قوله "في زينته"، الحمرة والصفرة، وقيل خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه آلاف على زيه، وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل في تسعين ألفاً، فيكون المقصود بـ"في" أنه خرج في ثيابه الفاخرة محاطاً بحاشيته الذين عن يمينه وعن شماله، وكأنهم صاروا له ظرفاً يحيطونه من كل جانب كما نرى اليوم عند خروج ولاة الأمور فإنهم يحاطون من جميع جهاتهم بحرسهم الخاص، يصيرون سياجاً لهم أي يصيرون ظرفاً لهم، وهم مظروفون فيهم ولهذا فاستعمال "في" هنا هو أوفق للمعنى من استعمال "مع".

والتعليل هو إبداء السبب، وذكر ابن هشام آيتين وحديثاً، قوله ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ وقوله ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ والحديث الشريف "دخلت امرأة النار في هرة" والمقصود عنده "لمتنني بسببه، ولمسكم بسبب ما أفضتم فيه و"بسبب هرة". ويبدو أن "لمتنني فيه"، لا يساوي "لمتنني بسببه" وكذلك الشواهد الأخرى، وإن استعمال "في" يختلف اختلافاً دقيقاً عن استعمال

"بسبب" فالفعل –لام– مثلاً يتعدى بـ"على" وبـ"في" لام على، ولام في، ونوع الحرف بعده يعطيه خصوصية معينة فـ"لام على" السبب خارجي، تقول: لمت زيداً على ضربه عمراً، أي جعلت اللوم متربعاً على الضرب ومنصباً عليه، ونقول: لمت زيداً في ضربه عمراً، إذا قصرنا لومه على ما أحدثه الضرب من أثر نفسي بالمضروب عمرو، من خجل وتأوه، وتألم، فكأن الضرب ظرف في داخله اللوم، و"لمتنني فيه" جعل يوسف (عليه السلام) مجازاً كأنه محل اللوم– وظرف له، وأن زليخاً داخلة في هذا الظرف منغمسة فيه حتى رأسها بمراودتها فتاها الذي عاش في كنفها، ومثل ذلك في المجاز قوله تعالى ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾[1] أي اجعل ذريتي موقعاً للصلاح ومظنة له، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[2] جعل القصاص ظرفاً للحياة ومكاناً لها.

وقوله ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي أكثرتم ودخلتم فيه من أمور معناه أنه جعل العذاب في الإفاضة فكأن هذه الإفاضة ظرف في داخله العذاب والشاهد "في هرة" المقصود به ما أحدثه الحبس في الهرة من ألم داخلي، ألم الجوع، وشدة العطش، وحرمان الحرية، ولو قال "بسبب هرة"، لما أشير إلى هذا الإحساس الداخلي بالجوع والعطش وما أحدثاه من انفعالات داخلية ونفسية،

---

[1] الأحقاف، ١٥.

[2] البقرة، ١٧٩.

والمعنى دخلت امرأة النار في هذه الفعلة على معنى أن هذه الفعلة ظرف احتوى المرأة وأدخلها النار.

وجاءت "في" في قوله تعالى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[1] لتشبيه "تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل في جذوع النخل"[2] أي يشدهم شداً قوياً محكماً تكون أجسادهم كأنها داخلة في جذوع النخل ولو أخذت عوداً وربطته بإحكام حول إصبعك لرأيت أثره في الجلد وكأنه قد دخل فيه، ولو قال سبحانه: "على جذوع النخل لكان ربطاً مجرداً يخلو من معنى عنف الربط وتمكنه، وقال الشاعر العربي مشيراً إلى مثل هذا في وصفه لشدة الالتحام، وحماسة اللقاء.

ولما التقينا قرب الشوقُ بيننا خليلين ذابا رقة وعذابا

كأن خليلاً في ثنايا خليله تسربَ أثناء العناقِ وذابا

وذهب المبرد في كامله إلى تفسير آخر هو أن النخيل صار واحدته ظرفاً للأخرى[3] وفيه إشارة ضمنية إلى كثرة النخيل الذي أحاط المصلوبين وصار ظرفاً لهم، ولذلك عبر بـ"في" دون غيرها و"في" على كلا التفسيرين باقية على ظرفيتها، لأنها تؤدي

---

[1] طه، ٧١.

[2] الكشاف، ٥٤٦/٢.

[3] الكامل، المبرد محمد بن يزيد، ٩٧/٣.

في هذا الموضع ما لا تؤديه "على" وصدق بعضهم في قوله: "في الخمر معنى ليس في العنب".

وتعطي "في" بقوله تعالى ﴿فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ معنى لا تعطيه "إلى" وتوضيح الأمر هو أن الفعل ردّ يأتي من غير حرف نحو "ردّ فلاناً" أي خطأه، ويأتي مع "عن" نحو "ردّ عن كذا" أي صرفه وأرجعه، وردّ عليه: أي لم يقبله و"ردّ إليه" أي أرسله وأرجعه، وقد جاء في القرآن الكريم مع اللام كقوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾[1] أي جعلناكم كأنكم تملكون الكرة عليهم توكيداً لحصول ذلك، وجاء مع "إلى" نحو ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ أي جعل الأم انتهاء غاية الرد.

ومع "في" "فردوا أيديهم في أفواههم" معناها ردوا أيديهم إلى أفواههم بشدة قوية أو ردوها إلى أفواه الأنبياء بقوة ليسكتوهم عن الكلام وكأنهم أدخلوها فيها كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[2] تعبيراً عن شدة الإدخال وقوته، وكأنهم أدخلوا جميع أصابعهم فيها لا جزء منها، ومعنى "في" والفعل "ردّ" لا يعطيه معنى "إلى" معه الذي يشير إلى الانتهاء فقط، ولا يشير إلى شدة الرد كما هو مع "في".

و"في" بقوله تعالى ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ باقية على ظرفيتها، والمقايسة متأتية من التركيب العام

---

[1] الإسراء، ٦.

[2] البقرة، ١٩.

للآية وليس من "في" ولكنها أدت غرضها الظرفي بإشارتها إلى الموجود في داخل الآخرة.

وأدت "في" في قوله تعالى ﴿ارْكَبُواْ فِيهَا﴾ غرضاً معنوياً وليس زائدة، وحرام أن يقال في القرآن شيء زائد، ولو كان زائداً لما ذكر فيه أصلاً، والفعل -ركب- يأتي مع "على" نحو، راكب على الشيء، ومع "في" "ركب في الشيء" وبغير حرف نحو: "ركب الشيء"، والمعنى العام واحد، وهو الركوب، ولكن يوجد فرق بين ركوب وآخر، فركب على الشيء: استعلاه والشيء له ظهر يمتطى كالحصان مثلاً، وركب في الشيء، الشيء مجوف كالسفينة في الآية، وركب الشيء، والشيء هنا مبهم، لا يعرف أله ظهر أم مجوف؟ لا يوجد في الكلام ما يدل عليه.

والخلاصة أن "في" في جميع المواضع السابقة باقية على ظرفيتها خلافاً لجمهور النحاة والمفسرين وقد أدت غرضاً بلاغياً لا يؤديه أي حرف آخر -في تلك المواضع- وتجريدها من ظرفيتها بالقول إنها بمعنى حرف آخر يجردها من معناها البلاغي الإعجازي، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولمقتضى المعنى الدقيق الذي أراده القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١-الإعجاز العلمي في القرآن، محمد السيد أرناؤوط، القاهرة.

٢-حاشية الكشاف، علي بن محمد الحسيني، دار الفكر.

٣-شرح ابن عقيل، الطبعة العشرون، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٤-الكامل، محمد بن يزيد المبرد، بيروت.

٥-الكشاف، الزمخشري محمود بن عمر، دار الفكر.

٦-معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٧-معاني النحو، د.فاضل صالح السامرائي، بغداد، ١٩٩١م.

٨-مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحـ: محمد محيي الدين، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

المبحث التاسع

البناء للمجهول في القرآن الكريم

يُحذف الفاعل ويُبنى الفعل للمجهول عند النحاة لأمور لفظية ومعنوية، فاللفظية هي: الإيجاز، والسجع، والمحافظة على الوزن، وأما المعنوية فهي الجهل بالفاعل، والخوف منه أو عليه، أو العلم به، كفعل الخلق، ورفع السماء ونصب الجبال، وتسطيح الأرض في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

وعند تتبع الفعل المبني للمجهول في كتاب الله العزيز ظهرت معاني جديدة لم يُشر اليها جمهور النحاة من قبل،وهي:

١ــ تنزيه الفاعل:

الأكثر في القرآن الكريم أن الله سبحانه يُظهر نفسه ،ويُبنى الفعل للمعلوم في أفعال الخير، ويُبنى الفعل للمجهول في أفعال العقوبة[2]،وفي أحداث يوم القيامة تنزيها لذاته عن عمل الشر أو التغيير المدمر عند قيام الساعة، والأقل من ذلك أن يذكر ذاته ويبني الفعل للمعلوم في إهلاك الكفار والمتجاوزين للحدود التي رسمها الإسلام، وإن كان إهلاكهم وتدميرهم فيه خير للآخرين، وفيه منع لحدوث المفاسد في الأرض، فالفعل"منّ" معناه الإكثار

(١) الغاشية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠.

(٢) معاني النحو ٢/٤٩٤ــ٤٩٥.

من النعمة،وقد ورد في القرآن ثماني مرات كلها مبنية للمعلوم، والفاعل هو"الله" كقوله تعالى:﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1]، وقوله ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾[2].

وكذلك الفعل"أنعم" معناه إيصال الاحسان إلى الغير[3]،ذكر في القرآن سبع عشرة مرة بُني الفعل فيها للمعلوم ،وذُكر اسم الله معه نحو ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾[4]، أو الضمير العائد عليه نحو ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[5] ...والفعل"كتب" ورد ثلاث عشرة مرة مبنيا للمجهول، في إحدى عشرة مرة منه مشفوعا بالحرف"على" الدال على مشقة نفسية أو جسدية ،نحو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[6]، ونحو ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾[7]،وورد في موضعين مشفوعا باللام؛ لأنه يشير الى ثواب ناجم عن مشقة

(1) آل عمران ١٦٤.

(2) فاطر ٢٧.

(3) مفردات القرآن للراغب ٥٠١.

(4) النساء ٧٢.

(5) البقرة ١٢٢.

(6) البقرة ١٨٣.

(7) النساء ٧٧.

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[2]، وأما أحداث يوم القيامة ففيها ظاهرة بيانية.. مطردة هي أن القرآن الكريم يصرف الحدث عمدا عن محدثه، فلا يسنده إليه، وإنما يأتي به مبنيا للمجهول، أو مسندا إلى غير فاعله على المطاوعة أو المجاز، وقد هدى تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية إلى أن البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث بصرف النظر عن محدثه، وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة تقرير لوقوع الأحداث طواعية تلقائيا، إذ الكون كله مهيأ للقيامة على وجه التسخير، والأحداث تقع تلقائيا لا تحتاج إلى أمر أو فاعل، استجابة لتسخير تلقائي[3]. ومن شواهد ذلك قوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[4]، و ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً

---

(1) التوبة ١٢١.

(2) التوبة ١٢٠.

(3) التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطي،ص٨١ـ٨٢، وانظر: الاعجاز البياني للقرآن، لها أيضا،ص٢٢٣ـ٢٢٥.

(4) الزلزلة ١.

وَاحِدَةٌ﴾[1]، و ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[2]، و ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[3]، وقوله ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾[4]، وقوله ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾[5].

ومن ذلك مجيء اسم المفعول "المغضوب" في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فإنه لم يأتِ

---

(1) الحاقة ١٤.

(2) الواقعة ٤.

(3) النبأ ١٨ــ١٩.

(4) المرسلات ٨ــ٩.

(5) التكوير ١ــ١٤.

بالفعلية" الذين غضبت عليهم" ويعطفها على الفعلية التي قبلها"أنعمت"، وإنما عَدل إلى اسم المفعول تنزيها لاسمه تعالى من أن يقرن بالغضب.

وفي العربية أساليب متعددة تدل على الكبرياء والعظمة منها استعمال ضمائر الجماعة بدلا عن ضمائر الإفراد قول الملك:(نحن قررنا، ورسمنا بما هو آتٍ ، وقوله تعالى:﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]،ومنها حذف الفاعل، وبناء الفعل للمجهول إذا كان الفاعل لا يليق أن يقرن بالمفعول،ولذلك حذف الفاعل في تحليل أكل بهيمة الأنعام، وفي آية الرفث في ليالي رمضان، في قوله تعالى:﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾[2]،و﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[3]، ولا يقتصر الأمر على البناء للمجهول ، بل يتعداه أحيانا إلى المبني للمعلوم، لا يذكر الفاعل معه لوجود أسماء في الجملة من الأفضل ألا يقترن بها، أو لا يظهر معها، فاسم الله سبحانه لم يذكر مع(الميتة والدم ولحم الخنزير) في حين ذكر من

---

[1] القدر ١.

[2] المائدة ١.

[3] البقرة ١٨٧.

قبل في طبيات الرزق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ....﴾[1]،فلم يقل(إنما حرم الله)،بسبب التنزيه وإرادة الكبرياء، وعدم اقتران اسمه جل شأنه وهذه المحرمات.

٢ــ الانقياد لأوامر الله أو التعبير عن المواقف الحدية:

(تُرجع، يُرجع، تُرجعون، يُرجعون)

ورد الفعل"تُرجع" بالبناء للمجهول ست مرات، والفعل(يُرجع) مرة واحدة، والفعل(تُرجعون) تسع عشرة مرة، والفعل(يُرجعون) سبع مرات كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[2]، وقوله ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[3]،وقوله ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4]،قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

---

[1] البقرة ١٧٢ــ١٧٣.

[2] البقرة ٢١٠.

[3] هود ١٢٣.

[4] يونس ١٠.

ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]،وكلها بمعنى الرجوع إلى الله، وكلها بأسلوب القصر بتقديم الجار والمجرور على الفعل(إلى الله تُرجع الأمور)،و(إليه تُرجعون)،و(ألينا تُرجعون)،و(إلى ربكم تُرجعون)،و(إليه يُرجع الأمرُ كلّهُ) وهذا يحمل معنيين: الأول: أن رجوع الأمور،والناس كلهم إلى الله، لا يشاركه أحد فيه، والثاني: أن الرجوع إلى الله قهري،قسري إجباري، لا اختيار فيه، ولا امتناع، ليس في وسع أحد الإفلات منه، أو الامتناع من أن يشرب كأسه، هو الموت والفناء وما بعدهما لا بد من حدوثهما طال الزمن أم قصر، ولو قال سبحانه:(إلى الله يرجعُ الناسُ والأمور)، لكان الرجوع كيفيا، اختياريا، مزاجيا، لا قانون له، من يشأ الرجوع يرجع ومن لا يرده فلا يرجع، وهذا ضد طبائع الأشياء التي لا بد من نهاية تصل إليها، وهكذا دلّ البناء للمجهول على قدرة الله وسلطانه، وخضوع الأشياء لمشيئته،وعلى النهاية المحتومة، والحدث الذي لا مفر منه، وعلى حقيقة الأشياء في تكوينها مثل:(تُبعثون، يُبعثون، وتُخرجون، ويُخرجون، وتُحشرون، ويُحشرون) وغيرها إذ لا إرادة فيها ولا اختيار، وإنما هي أفعال لا بد من حدوثها وحصولها..

وكلّ ابن أنثى، وإن طالت سلامته يوما على آلةٍ حدباء محمول

[1] العنكبوت ٥٧.

٣ــ السرعة في إحداث الفعل أو التعبير عن المواقف المتوترة:

القوة، والقدر ة من صفات الله تعالى،وإذا أراد أن يفعل شيئا فهو يفعله ــ إن أراد ــ بسرعة لا تستطيع العقول أن تتصورها أو تدركها، وأكد هذا في آيات عدة منها ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]،وقد يُشار في اللغة إلى هذه القدرة ببناء اللفظ على صيغة معينة أو حذف أو قرينة من القرائن الأخرى ، من ذلك أن الجملة المبنية للمعلوم مثل:(كتب زيدٌ الدرس) أطول من الجملة المبنية للمجهول نحو:(كُتبَ الدرسُ) فالجملة المبنية للمجهول أقصر منها، وأسرع في النطق،ولو بفارق بسيط لكن هذا الفارق البسيط يُشير إلى سلطان المحدث وقدرته،وسرعته في إنجاز الحدث، فارق قليل هو رمز لقدرة كبيرة، عظيمة، عاتية جبارة، آمرة، ناهية ،مطاعة،وهذا الرمز جاء واضحا في قصص طوفان نوح عع في قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ

---

[1] مريم ٣٥.

الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]،فبنيت أربعة أفعال للمجهول، وحذف الفاعل، وقصرت الجمل لتناسب مشاعر قوم نوح في استعمال الفرج، وتناسب سرعة امتثال الطبيعة لأوامر الله،وتناسب سرعة نهاية المشهد التي كأنها تمت في لحظة واحدة، فقصرت العبارة ببنائها للمجهول، لتحاكي نهاية حال السرعة الظاهرة فيّ المشهد كله.

ومن ذلك في غير البناء للمجهول أن جواب السؤال في القرآن أتى مبدوءا بـ(قل) أربع عشرة مرة كقوله تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[2]، ولكنه جاء بتقصير العبارة من غير(قل) في قوله تعالى:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...﴾[3]،إشارة ورمزا إلى قرب الله من عباده وتعبيرا عن قرب المسافة أو انعدامها بين الله وسائله وهو صريح في قوله تعالى:﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4].

---

(1) هود ٤٤.

(2) البقرة ٢١٩.

(3) البقرة ١٨٦.

(4) ق ١٦.

٤ــ التلقائية في إحداث الفعل:

ذلك يتجلى في الفعل(فألقى) في قوله تعالى:﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[1]، فبنى الفعل للمجهول تعبيرا عن أن الإلقاء ذاتي فجائي من غير اختيار أو معارضة نفسية، صدمهم هول الحادثة، والحية، فخروا سجدا لله كأن نفوسهم تلقائيا خرت ساجدة لله، لأنّ قوة الحق فاجأت صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أن يقعوا ساجدين[2]، كما قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[3]،وكقوله:﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[4]،أي تأتي إليها، وكأنها في إتيانها تسقط تلقائيا من غير تردد أو سيطرة على عدم السقوط الذي هو المجيء.

---

(1) طه ٧٠.

(2) قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي،ص٣٧١.

(3) الإسراء ١٠٧.

(4) إبراهيم ٣٧.

٥ــ تقليل شأن المتحدث عنه أو ما يتصل به:

يبنى الفعل للمعلوم ويظهر الفاعل إذا كان في الأمر شدة أو مبالغة أو تفضيل رتبة، وقد تلحقه زيادة في العطاء والصفات، وغيرهما، والله سبحانه يُظهر نفسه ويسند الفعل إلى ذاته في الغالب ــ كما قلنا سابقا ــ في مواقف الخير والعطاء والقوة والمبالغة، ويبنى الفعل للمجهول في الغالب أيضا في المواقف التي هي أقل شأنا ،والتي نسميها بمواقف الرتبة الثانية أو الدرجة الثانية ومن ذلك الفعل(طَبَعَ،وطُبِعَ)في قوله:﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]،وقوله:﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2]، فما أُسند إلى الله أثبت، وأقوى، وأشد تمكنا في القلب مما لم يسند اليه،ولهذا اختلفت الفاصلة فجاءت(لا يعلمون) مرة،و(لا يفقهون) أخرى، لأن طبع الله قوي يمنع أي علم،والطبع في المبني للمجهول ليس على تلك الدرجة من القوة، فلا يمنع العلم كله، وإنما يمنع شيئا منه وأخص، والمشار اليه بـ(لا يفقهون)، ومنه أن(خطايا،وخطيئات) جمعان لـ(خطيئة)، ومعناهما واحد هو(الذنب)، لكن

---

[1] التوبة ٩٣.

[2] التوبة ٨٧.

الأول(خطايا) جمع كثرة، و(خطيئات) جمع قلة، فهما متفاوتان عدديا،و(خطايا) ورد في سورة البقرة في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]،و(خطيئات) في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]،وقيل في سبب استعمال هذين الجمعين أن الله سبحانه لما أسند القول إلى نفسه(وإذا قلنا) ذكر جمع الكثرة(خطايا) ليناسب قدرته وعظمته وكرمه، ولما بنى للمجهول(وإذا قيل) جمع القلة؛ فرقا بين ما ظهر اسم الله فيه وما لم يظهر، قال الإسكافي:((فأما الكلام في(الخطايا) واختيارها في سورة البقرة، فلأنها بناء موضوع للجمع الأكثر، والخطيئات جمع السلامة وهي الأقل...استعمل لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الاخبار فيه عن نفسه بقوله:(وإذا قلنا ادخلوا...)...ولما لم يسند

---

[1] البقرة ٥٨.

[2] الأعراف ١٦١.

الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه...(وإذا قيل...) أتى بلفظ(الخطيئات) وإن كان المراد بها الكثرة كالمراد بالخطايا، إلا أنه أتى في الأول لما ذكر الفاعل بما هو لائق بضمانة من اللفظ،ولما لم يُسمّ الفاعل في الثاني في سورة الأعراف وضع اللفظ غير موضعه للفرق بين ما يؤتى به على الأصل، وبين ما يعدل عنه إلى الفرع))[1].

وعلى هذا يُقاس البناء للمجهول في ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ تقليلا من شأنهم لئلا يعلوا على المسلمين عندما يكون الحديث عنهم، ولكونهم فئة ضالة محرفة نستنتج من هذا أن جمع الكثرة أنسب للفاعل الظاهر، وجمع القلة يلائم صيغة المبني للمجهول،وأن الفخر والمرتبة الأولى أنسب للبناء للمعلوم،وأن التنزيه والمرتبة الثانية أنسب للبناء للمجهول، كما ورد أو سيرد في ثنايا هذا البحث.

٦ــ الاهتمام بالمفعول وإبراز صفاته:

الفاعل هو الذي يقوم بالفعل، والمفعول به أو الفضلة هو الذي يقع عليه ذلك الفعل، والأصل في الجملة الفعلية أن يُقدم الفعل فالفاعل فالمفعول به، نحو(ضرب زيد عليا)، وقد يُعتنى

---

[1] درة التنزيل،ص٩-١٠.

بالمفعول به فيقدم على فاعله نحو(ضرب عليا زيـدٌ)، وإن زادت العناية يقدم على الفعل أيضا نحو(عليا ضرب زيدٌ)، فإذا بُولغ في عنايته حذف الفاعل، وبُني الفعل للمجهول، ورفع المفعـول بـه، وناب عن فاعله نحو(ضُربَ زيدٌ)، هذا ما أشار إليه ابن جني في كتابه المحتسب[1].

وقد ورد مضارع الفعل(طاف) سـت مـرات فـي القـرآن الكريم،ثلاثـا منهـا مبنيـة للمعلـوم(يطـوف) وثلاثـا مبنيـة للمجهول(يُطاف) وتقسيمها المتساوي بين المعلوم والمجهول لافت للانتباه،وبناؤها للمعلوم مرة، والمجهول أخرى، يدعو إلى التساؤل والتدبر، فقسمتها المتساوية طبيعية، لأنها تتحدث عن السقاة فـي الجنة، والساقي لابد له من إناء يسقي به، ولابد للإناء من سـاق يحمله للآخرين فهما أمران متلازمان، ملازمة الآلـة لـصاحبها، فتساويا في العدد، فإن أريد الحديث عن السقاة وصفاتهم بُني الفعل للمعلوم، وذكر الفاعل ، قال تعالى:﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾[2]،﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

---

[1] ابن جني، المحتسب ٢/٦٤-٦٥.

[2] الإنسان ١٩.

مَكْنُونٌ﴾[1]،وحينما تطلب الأمر وصف أواني الشرب،وهي المفعولة في السياق حذف الفاعل،وحلّ المفعول محله،وبُني الفعل للمجهول، لحصر فكر السامع بصفة الآنية؛ لئلا ينصرف الذهن عنها، أو يُشاركها الفاعل في الانتباه، فتصبح صورتها باهتة عنده، يُقاسمها حاملها ذلك الاهتمام والوصف، فتصير ثانوية في الجملة،لأن الفاعل يدفعها عن المرتبة الأولى،وفي البناء للمجهول ينعكس الأمر، ويصبح المفعول في المرتبة الأولى، وهو المهم في السياق الذي يُراد له أن يكون هو محور الحديث ،فقال جلّ شأنه:﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾[2] و ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[3]، و ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[4].

وقد يكون هذا الأمر في السورة الواحدة،وفي آيات متتالية، قال تعالى:﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا

---

[1] الطور ٢٤.

[2] الصافات ٤٥.

[3] الزخرف ٧١.

[4] الإنسان ١٥، ١٦.

مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾[1]، قال الاسكافي:((للسائل أن يسأل عن قوله:(ويُطاف عليهم) ،وهو فعل ما لم يُسمّ فاعله وبعده،و(يطوف عليهم) وهو فعل سمي فاعله، وعن اختصاص كل من المكانين بواحد منهما وعن الفائدة فيه؟،والجواب أن يُقال إن القصد في الأولى إلى وصف ما يُطاف به من الأواني دون وصف الطائفين، فلما كان المعتمد بالإفادة ذاك، بُني الفعل مقصودا به ذكر المفعول لا الفاعل، فقال الله تعالى:﴿بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾،أي آلات من فضة صفاؤها كصفاء القوارير، لا تمنع أن يُرى ما وراءها،وقد قدرت على صفة فجاءت على ما قدرت وفقا لمنية المتمني،وقيل: قدرت تقدير ما يسع الري، وقيل: قدرت على ما يريد الشارب أن يكون عليه لا زيادة، ولا نقصان، ثم قال تعالى:﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾، فوصف بعد الإناء الذي تسبق العين اليه ما

---

[1] الإنسان من ١٥ -١٩.

يحويه من مشروب وطيبه، فلذلك لم يُسمّ فاعله، (ويُطاف)؛لأنه جاء بعد قوله:﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾،وأما الموضع الثاني الذي سمي فيه الفاعل،وهو قوله تعالى:﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ فإن القصد فيه إلى وصف الفاعلين الذين يطوفون بهذه الآنية، فوجب ذكرهم لتعلق الصفة بهم، فقال تعالى:﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾،وفي(مخلدون) ثلاثة أقوال: باقون أبدا دائمون لا يموتون،وقيل: يبقون على هيّأة الوصفاء فلا يشيبون،وقيل: مخلدون محلون ــ والخلدة ــ القرط، وقوله:﴿مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾،في الصفاء ألوانهم وضياء وجوههم، وحسنهم،وإشراقهم وماء النعيم المترقرق فيهم،وإذا كان كذلك أوجب ما بني عليه الكلام أن لا يسمى الفاعل في الأول، ويسمى في الثاني كما جاءت عليه الآيتان))[1].

وقال الدكتور فاضل السامرائي:((ومما زاده حسنا قوله في

---

[1] درة التنزيل وغرة التأويل، محمد بن عبد الله الاسكافي،ص٣٦٥-٣٦٦.

الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ بالبناء للمجهول، فناسب(يُنزفون) بالبناء للمجهول،وقال في الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بالبناء للفاعل، فناسب(يُنزفون) بالبناء للفاعل))[1].

٧ــ إرادة العموم والشمول:

في اللغة العربية طرائق تدل على العموم ــ على شيء غير معين ــ منها التنكير، وبمرور الزمن تتحول الفكرة إلى شيء معروف بالقرائن، والصوف، والالفة، لذلك كثرت النكرة في السور المكية، لكون بعض ما ورد فيها غير معروف أصلا أو غير معروف في بعض جوانبه، فـ(نارا) في قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[2] ،هي نار معروفة في حالتها الاعتيادية وغير معروفة تلك النار التي يُعاقب الله بها، ثم عرفت عندما وصفها القرآن بأنها ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[3] ﴿نَارٌ تَلَظَّى﴾[4] ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1]

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي ،ص٨٤.

(٢) المسد ٣.

(٣) القارعة ١١.

(٤) الليل ١٤.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[2]، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[3]،و ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾[4]، بعد ذلك كله أصبحت معروفة، فجاءت معرّفة في السور المدنية أو كثر تعريفها فيها.

ومنها حذف المفعول به كقوله تعالى:﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾[5]،فالفعلان(أعطى، واتقى) عامين غير مقيدين بمخلوق معين، أو عطاء معلوم... ومنها الوصف بالجملة الفعلية كقوله وتعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6] فإنها تشمل كل من يؤمن إلى يوم القيامة،ولو ذكر الاسم(مؤمنين) لاختص بقوم مؤمنين في زمن النبي عليه السلام[7].

ومنها البناء للمجهول كقوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ

---

[1] البقرة ٢٤.

[2] المعارج ١٥.

[3] ق ٣٠.

[4] الملك ٨.

[5] الليل ٥.

[6] العنكبوت ٢٤.

[7] درة التنزيل، عبد الله الاسكافي،ص٢٥، القاهرة.

﴿مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ....﴾[1]،فالوعظ هنا غير مقتصر على أحد وإنما هو عام، يوعظ به أي إنسان،وفي أي زمان ومكان، فهو يصلح لكل شخص يريد أن يعظ به، ولو ذكر الفاعل لاقتصر على واعظ معين، وزمن معين.

ومنه بناء الأفعال(يؤفك،يُؤفكون،ويُؤفكون) في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[2]،و ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[3]،و ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[4]،و ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[5]؛ من اجل التعميم، لتعدد الفاعل، وتنوعه، وعدم تعيينه، وتحديده فـ((قد يكون هذا الفاعل الشيطان، أو الهوى، أو الشبهة، أو الشهوة أو النفس، أو قرين السوء، أو العرف الباطل، أو التقليد الأعمى، أو المصلحة الذاتية، أو الدنيا الخادعة، أو غير ذلك، ثم أن لكل نفس ما يصرفها، ويأفكها عن الإيمان بالله، فهناك نفس يأفكها الشيطان، ونفس أخرى يأفكها قرين السوء، ونفس ثالثة يأفكها الهوى...وهكذا، لهذه الأسباب حُذف الفاعل، بُني الفعل

---

(1) التوبة ١٦.

(2) الذاريات ٩.

(3) الأنعام ٩٥.

(4) المائدة ٧٥.

(5) الروم ٥٥.

للمجهول))[1]،ليكون الفعل عاما صالحا لكل من يصرف عن متابعة منهج القرآن.

ويكثر التعميم في الأحكام الشرعية؛لأنها عامة للبشر كلهم، وللعصور أجمعها كقوله تعالى:﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2]، لم تتعلق الآية بمحيٍّ معين، وجاء خطابها عاما، ولو ذكر الفاعل لاقتصر عليه، وعلى زمنه، وأصبحت شريعة وقتية محصورة بمحيٍّ معين، وبزمن محدد، ومثله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[3] ، حذف الفاعل هنا؛لأن الله سبحانه يريد حكما عاما للمسلمين كلهم، حتى قيام الساعة، ولو ذكر فاعلا لتعلق الحكم به، وفي زمنه،وهذا غير مراد في التشريعات العامة الشاملة. ومنه قوله تعالى:﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[4]، قرئ بالبناء للفاعل،وفك الإدغام(ولا يُضارِرْ)وبالبناء للمجهول،وفك الإدغام(ولا يُضارَرْ)، فعلى البناء للفاعل يكون الكاتب والشهيد

---

(1) د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، لطائف قرآنية،ص١٤٥، ط٣، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٤م.

(2) النساء ٨٦.

(3) البقرة ١٧٣.

(4) البقرة ٢٨٢.

فاعلين، وهما اللذان يُوقعان الضرر بالآخر إذا حادا عن جادة الحق كأن يكتب الكاتب غير ما اتفق عليه، ويشهد الشهيد زورا، وعلى البناء للمجهول يكونان مفعولين معنى، وهما المنهي عن إلحاق الضرر بهما، قال الزمخشري:((ولا يُضار" يحتمل البناء للفاعل، والمفعول،والدليل عليه قراءة عمر(ر)"ولا يُضارِر" بالاظهار والكسر، وقراءة ابن عباس(ر) "ولا يُضارَر" بالإظهار والفتح، والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يُطلب منهما وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بأن يجعلا عن مهم ويلزا، أو لا يُعطى الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤونة مجيئه من بلده))[1]،ولكن القراءة السبعية قد جاءت بالإدغام لتشمل المعنيين السابقين معا، وهذا أبلغ وأوفق، وأدل على الإعجاز البلاغي في القرآن.

٨ــ التوكيد بالتشويق:

التوكيد،والتأكيد مصدران للفعل(وكّد،وأكد) ويصار اليه اذا كان السامع شاكا او منكرا وله في اللغة العربية أساليب متعددة معروفة في كتب النحو والبلاغة، ومنها البناء للمجهول كقول الشاعر:

ليُبكَ يزيدٌ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائحُ

---

[1] الكشاف، الزمخشري جار الله محمود ٤٠٤/١، دار الفكر.

فـ(يزيد) على هذا نائب فاعل، وضارع: فاعل لفعل محذوف تقديره(يبكيه ضارع)، فلما قال:(ليُبكَ يزيد) بالبناء للمجهول، كأن سائلا قال له: من يُبكيه؟ فأجابه: يبكيه ضارع، ومن الحذف والذكر من الإبهام ثم التوضيح جاء التوكيد والتشويق.. وقراءة الفعل(يُسبّح) بالبناء للمجهول[1] في قوله تعالى:﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ...﴾[2] فيها توكيد،وتشويق، إذ يكون أحد المجرورات (له، فيها، بالغدو) نائب فاعل، ورجال: فاعل لفعل محذوف والتقدير(يسبح له بالغدو والأصال يُسبحه رجال)، فتكرر الفعل(يُسبح) وبتكراره حصل التوكيد نحو(جاء جاء زيد).

---

[1] الكشاف ٣/٦٨.

[2] النور ٣٦-٣٧.